كتاب اليوم

حكايـــة أولاد حارتنا

■ د. عبد الجليل شلبى
■ د. سمير سرحان
■ محمود أمين العالم



8
S

كتاب اليوم

يصدر عن دار أخبار اليوم أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

يناير ١٩٩٥

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	١	دينار
المغرب	٢٥	درهم
لبنان	٢٥٠٠	ليرة
الاردن	١٥٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	٢٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٦٠	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١	دينار
سلطنة عمان	١	ريال
غزة	١٥٠	سنت
ج. اليمنية	٣٥	ريال
الصومال نيجريا	٨٠	بني
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريال
انجلترا	١,٧٥	جك
فرنسا	١٠	فرنك
ألمانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا	٥٠٠	سنت
أمريكا	٥	دولار
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٠ دولارا أمريكايا أو ما يعادله

أوربا وأمريكا ٣٠ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا ٤٠ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

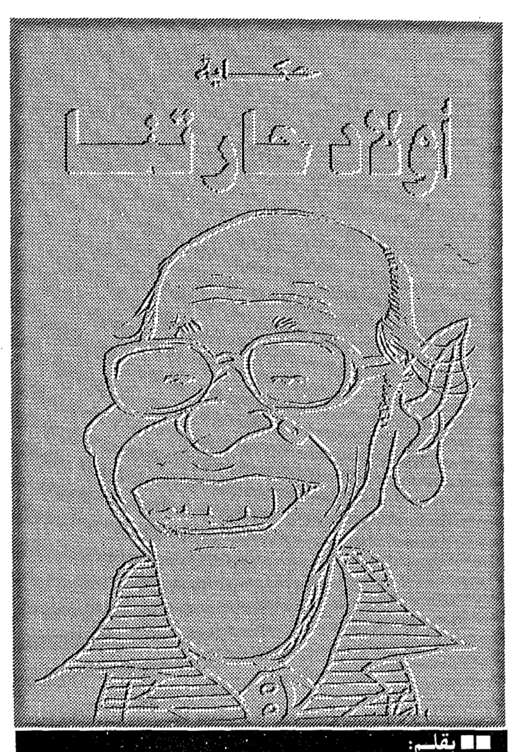
● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور ●

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ●

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● تلكس : ٢٢٨٢ ـ ٢٠٣٢١ دولى ●



بقلم:

■ د.عبد الجليل شلبى ■ د.سمير سرحان ■ محمود أمين العالم

● تصميم الغلاف والإخراج الفنى
أحمـد السعـيد

● الغلاف بريشة :
سيد عبدالفتاح


١
رمزيات
أولاد
حارتنا
بقلم:
د.عبد الجليل شلبي

تقـــــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله الكـريم وأصلى وأسلم على نبيـه العظيـم خـاتم الأنبيـاء والمرسلين ، اللهم بصرنى بـالحق وأعنى على اتباعه . وجنبنـى الباطل وحل بينى وبينه ، وأعوذ بك يـاربى أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أن أكـون بـك مغـرورا ، اللهم أرزقنى نـور العقل واعصمنى من نزغات الهوى .

وبعـد فهذه خـواطـرى عن رواية «أولاد حـارتنـا» التى أخرجهـا الكـاتب الكبير الأستاذ نجيب محفـوظ من نحـو ثـلاثين عامـا ، كنت أقرؤها فى جريـدة الأهرام ، أو على الأدق كنت أقرأ الكثير من فصولها ، وطفرت فى ذهنى اذ ذاك خواطر كثيرة عنها وعما يريد منها كاتبها .

بـدا لى أنها تصف ظلم الإنسان لـلإنسـان ، وبغى الأقويـاء ، على المستضعفين ، وهذه نـزعة لازمت الإنسـان منذ هبط آدم إلى الأرض ، كان يريد أولاده ، أن يعيشوا فى سـلام ومحبة ، ولكن عكر هذا السلام ونغص هذه المحبـة إبنه قـابيل بقتله أخاه ، وكـانت هذه أول جـريمة وقعت فى الأرض ، ثم تتابعت الجرائم ، وكـان المصلحون يظهرون بين

حين وحين يحاولون نشر العدالة وإنصــاف المظلومين ، وبث التعاليم والـوصايـا التى تبعث الطمأنينة فى القلـوب ، ولكن ينتصر الظلم حتى على الأنبياء ،فيذهبون وتذهب أيضـا تعاليمهم ووصاياهم ، ولما ظهر العلم الحديث لم ينتصر على الظالمين ، بل اتخذ الظـالمون منه سـلاحا لهم حتى على العلماء ، الظلم إذن طــوفـان غـامــر يجرى فى عـروق الآدميين ، وليس دعاة الإصـلاح إلا مرقداً مـوقوتا يفرح النـاس به إلى حين .

هذه الفكـرة بادية جـدا فى الرواية ، وقـد دس المؤلف بين فصولها مـواقف كثيرة تزيـدهـا وضـوحا ، ففى كل فصـل نجد «فتـوة» كبيرا يعتـدى على الناس ، ونـاظـر الـوقف والفتوات فضـلا عن اغتيـالهم نصيب الناس فى الوقف يفرضون عليهـم إتاوات ، والناس مع هذا كله يتذرعون بالصبر ويتطلعـون إلى يوم ينصفون فيه . والمؤلف لم يعف الجبلاوى من هـذا الظلم ، فقد طرد كـلا من إدريس وأدهم من البيت لأسباب واهية ، ولم يوضح الكاتب كما وضحت الكتب المقدسة تعليل هذا الطرد .

والجبـلاوى قابع فى بيتـه لايـراه أحـد ، ولكنه غير راض عن هـذا الظلم ، وهـو يشجع المصلحين ويخاطبهم دون أن يـروه ، ويـوجههم لهداية النـاس وكف الظالمين عن ظلمهم ، وخاطر آخـر انقدح فى ذهنى بعد أن قـابلت الأستاذ نجيب وحـدثنى عن روايته «ثـرثرة على النيل» فقد قال إنه أراد بها تصويـر العزلة التى فرضت على المثقفين فى العهد الناصرى ، فلم يبق لهم عمل وهم معزولون عن حياة الناس إلا ضياع الوقت فى العـربدة والشراب ، خيل إلىّ - ولم أفاتحه فى ذلك — أنه يشير إلى مـا كان يعـانيـه النـاس فى ذلك الوقت من كبـت وإرهاق وانتـزاع أملاكهم منهم فى موجة التـأميم التى أوذى الناس منها ولم يستطيعوا أن يجأروا بالشكوى . فـالرواية تقول لهم لقـد أوذى الأنبياء من قبل

ولاقوا فى سبيل دعواتهم مالاقوا ، فليكن لهم بأتباعهم أسوة ، وعسى أن ينتهى الليل ويأتى نور النهار .

وكان الخاطر الذى يضايقنى هو إغراق الرواية فى الشرب والسكر والمخدرات ، حتى الأنبياء المصلحون الذين اختارهم لم يبتعدوا عن الغرز ولم يتنزهوا عن الشراب والتحشيش . ولكن هذه خصيصى نجيب ، فمعظم رواياته تحوى هذه المظاهر . ويبدو أنه لانغماسه فى الحياة الشعبية لاحظ هذه الظاهرة وهى لاتزال شائعة فى حياتنا المصرية رغم التشديد ورغم قسوة العقوبات ، وقد تركت الرواية باب الأمل فى الانصاف والانتقام من الظالمين مفتوحا بعثور «حسن» تابع عرفة على الكراسة التى تحوى أسرار السحر ، كما تركت نفوس أولاد الحارة متشوقة إلى ظهور مخلص عاقدة آمالها على نور سينبثق ليضىء ، حياة الشعب المظلمة .

وكما سأذكر فى التعقيب على الرواية ، كان كل ما أعنيه بالكتابة عنها هو حل رموزها ، والمطابقة بينها وبين أصولها فى كتب الأديان والتاريخ . والأستاذ نجيب من قبل أن يحصل على جائزة نوبل معروف فى العالم العربى وغير العربى ، ونسأل الله له مزيدا من النشاط وطول العمر

د . عبد الجليل شلبى

رمزيـــات

أولاد حارتنا

هذه قصة تـرمز إلى حياة الأجيال وتطوراتها منـذ بدء الخليقة ، أو قـد رأى كاتبهـا أن يقتبس أحداثهـا من مقدسـات العهد القـديم ومن الأناجيل ومن القرآن ، ولكن أدخـل على هذه الأحداث مايكسوهـا ثوبا شعبيا ، وقد قال فى مقدمتها إنـه سجلها جميعا كما يرويها الرواة وما اكثرهم وكما نقلتهـا الأجيال ، وهذه حكـايات تروى فى ألف منـاسبة ومناسبـة .. وهو قـد مزج الخيـال والأقوال الشعبيـة بما اقتبسه من المقدسات .

وفى ادب الأستاذ محفوظ خاصيتان بارزتان فى كل أوجل رواياته ، أولاهما تذوقـه الحياة الشعبيـة وإحساسـه بمشاعـر الطبقة الـدنيا والمتوسطـة وتجد ذلك فى قصصـه الطويلـه وأقصوصـاته القصيرة ، ففى «خان الخليلى» والثلاثية نجد تصـويرا واقعيا للطبقة المتوسطة ، وفى مثل «التـوتة»«وحضرة المحترم» و «المقـابلـة الساميـة» تصويـر للطبقة الشعبية والجهـاد اليائس للتخلص ممايعانيـه المقلون ، ونقرأ

هذه القصص على طولها وعلى قصرها فنتخيل «نجيب محفوظ» يعيش مع هـؤلاء النـاس ، يحس مشـاعـرهم وينفـذ إلى أعماق نفـوسهم ، ويتحدث بلسانهم .

والخاصية الثانية هى إجادته الرمزية ، وحسن الاشارة إلى مايريد من غير تصـريح بشيءليعـسر ـ مع فهم مايـريد ـ أن يقـع تحت مسئـوليـة قانـونيـة ، وهى سمـة الاديب الناضج ، والأمـر كما قـال «كارلايل» : «الأديب الـذى يعاقب على أدبـه يستحق العقوبـة» وقصة «ثـرثرة على النيل» تعنى عـزلـة المثقفين التى فرضت عليهم فى العهـد النـاصرى فجعلهم فى عـوامـة فى النهـر فـارغين لاعمل لهم الا الشرب والسكـر ، ولا يـربطهم بـالعـالم إلا هـذا الممـر الخشبى الضئيل «السقالة» وأذكر وأنا فى انجلترا أننى قرأت با لمصادفة له قصة قصيرة عنـوانها «فنجان قهـوة» وأعجبت بها أيما إعجـاب ، فقد صـورت على قصرهـا مشاعـر النـاس المرتبطـة بنظم الحكم فى بلادهـم فى رمزيـة شائقة جميلة .

وخاصية ثـالثة أذكرها لهذا الكـاتب الكبير وهى أناته وصبره حين يصـور الوقـائع التى يريـدها أو يصف نفسيـات الاشخاص الـذين يتحـدث عنهم ، فهو لايعنيـه الأكثار من تتـابع الأحداث ونقل قـارئه بسرعـه من حـادثـة لأخـرى ، ولكن يعنيـه تحليل الحادث ورده إلى أسبابه البعيدة والإيماء إلى ماينتج عنه .

هذه الخواص الـذاتية تبرز بـوضوح فى قصـة أولاد حارتنـا فهى أساس قصـة رمزية ، وقـد أشبعها ـ حتى جعلهـا تغص ـ با لمظـاهر الشعبية ، وسنـذكر ذلك فى مـوضعه بعد ، ثم هـو بسبب أناتـه طويل النفس فى تصويـر كل حادث يتعـرض له . وهـذا ـ دون ريب ـ مما أكسب الرواية هذا الطول .

هيكل الرواية :

الرواية كما ذكرنا تعرض حياة الكـون منذ بدء الخليقة ، ومنذ أمر الله ـ سبحانه الملائكه أن تسجد لأدم واستكبار إبليس عن السجود له وطرد إبليس من الجنـة ، ثم اغواء الشيطـان آدم أن يأكل من الشجرة المحرمة ممـا سبب طرد آدم وحواء من الجنة أيضا ، وقـد تكاثر نسل آدم ، وبعث الله لهم الرسل مبشرين ومنذرين فكـان لكل نبى مع قومه قصة وجهاد .

وقد اختصر الكـاتب الكون فى حارة ، وصـور الجنة ببيت كبير ذى أسوار عـالية وبه حديقـة ذات أشجار وثمار ، وبدلا من أن يـذكر الله الخالق جعل صاحب البيت والحديقـة هو الجبلاوى ، وجعلـه ذا بنية قوية وجبروت وجعـل له أملاكا وأحكارا ، وهـو يحصل إيجارها ، كما يحصل ثمارا أو أشياء أخرى تجعلـه ذا دخل وثراء ، مما جعل الحارة تخضع كلها له وتخشاه .

وانتقل الكاتب بسرعة إلى رسالة مـوسى ـ عليه السلام ـ والأحداث التى صـادفهـا فى مصر ، وخـروجـه ببنى اسرائيل من مصر وغـرق فرعـون ، ثم ذكر حياة المسيح ونهايتـه مقتولا بالنبـابيت . ثم عرض حيـاة النبى محمـد ــ صلى الله عليـه وسلـم ــ هجـرتـه وحـروبـه وانتصـاراته . وختم الحديث بمـوت الجبـلاوى ـ وهـذا رمز لنكـران وجود الله بظهور المذهب العلمانى وتفشى الشيوعية الكافرة بالله .

هذا هو هيكل الروايـة ، ونحن نمر بفصولها لا للشرح والتفصيل ، ولكن لبيان الـرمزيات التى تحتـويها . وظاهر من استعراض الـرواية أن المؤلف لم يقف عند الـروايات الشعبية بل رجع إلى الكتب المقـدسة لأنه ذكر تفاصيل ودقائق لايعرفها الشعبيون السذج ، وسنشير إليها عند عرضها .

ويلاحظ أن المؤلف اختار لأبطاله أسماء متقاربة ، فآدم هو أدهم ، وإدريس هو إبليس . وأبناء آدم قابيل وهابيل هما همام وقدرى .

ونحن نستعرض هذه الفصول أو هذه الشخصيات مدركون أن استعراضها السريع يذهب بما فيها من عمق التحليل وعرض السمات الشعبية التى تقوم الرواية عليها ، ولايغنى ذلك عن الرجوع إلى الرواية لمن لهم صبر على القراءة .

والرواية قائمة على الحوار ، والاستاذ نجيب بارع فى حواره ، وتبدو فيه السمات الفلسفية ، والاستاذ نجيب — كما هو معروف للجميع - تخرج فى قسم الفلسفة من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فدراسته الفلسفية تظهر فى إدارة الحوار وتوجيه الأسئلة والأجوبة .

وأسلوب الرواية كما تستدعى أحداثها ومظاهرها الشعبية أسلوب سهل تظهر فيه عبارات عامية كثيرة ، ولكنها لابد منها لإحكام الموقف ولدقة تصويره ، وننظر بسرعة فى فصول الرواية .

أدهـــــم

أدهم هو آدم

جاء فى أول الفصل : « كان مكان حــارتنا خلاء ... ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى .

وهــذا الكلام قــائم على مــا جاء فى الكتب المقــدســة ، ففى الحديث الشريف : كان الله ولم يكن غيره » وفى أول سفــر التكوين : «.. وكانت الأرض خربة وخــالية ، وعلى وجه الأرض ظلمة ، وروح اللــه يرف على وجه الماء ... »

وقصــة آدم فى الجنة مــذكورة فى غير سورة من ســور القرآن ، فقد علمه الله الأسماء كلهــا ، وقال للملائكة : اسـجـدوا لآدم ، وهو سـجود تعظيم لا سـجود عبادة ، فسـجــد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الســاجدين ، وكان إبليس رئيس الملائكــة فى الجنة ، فلما أبى أن يسـجد لآدم طرده الله منها .

وجاء فى سفــر التكوين : « وأنبت الرب الالــه من الأرض كل شـجرة شـهيــة للنظر جيـدة للأكل ، وشـجــرة الحيــاة فى وسط الجنة شـجــرة معرفة الخير والشر ... »

وأخذ الرب الاله آدم ووضعه فى جنة عدن . قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها .. »

وصور المؤلف هذا الموقف حسبما هداه خياله : « ويوما دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه ، وجاء الأبناء جميعا ... فوقفوا بين يديه ، وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة ... وهو يبدو بطوله وعرضه خلقا فوق الآدميين ، كأنما من كوكب هبط ... وقال بصوت خشن وعميق : « أرى من المستحسن أن يقوم غيرى بإدارة الوقف » ـ لم تكن إدارة الوقف مما يغرى قوما استحبوا الفراغ والدعة وعربدة الشباب ، وفضلا عن هذا فإدريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعى للمنصب » وقال الجبلاوى : « وقد وقع اختيارى على أخيكم أدهم ليدير الوقف ... » ـــ عكست الوجوه وقع مفاجأة ... فتبودلت النظرات فى سرعة وانفعال » .

هذا الموقف ناظر إلى قول الله : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ..» وسكت الأبناء ودار حوار بين ادريس والجبلاوى لأن ادريس لم يقبل هذا القرار وهو الابن الأكبر ، وجاء فى حوار ادريس : «انى وأشقائى أبناء هانم من خيرة النساء ، أما هذا فابن جارية سوداء» .

وقال الجبلاوى : أدهم على دراية بطباع المستأجرين ، ويعرف أكثرهم بأسمائهم .

وهذا الحوار ناظر إلى تعليم آدم الأسماء ، وإلى قول إبليس : «خلقتنى من نار وخلقته من طين » لهذا قال ادريس : أمه سوداء وأمى بيضاء .

ولست أدرى كيف طاب للمؤلف أن يصف الجبلاوى بالظلم والعسف المتوالى . فقد جاء فى وصفه : اكفهر الوجه الكبير ... وأيقن الجميع أن ادريس قد انتهى ، ما هو إلا مأساة جديدة من المآسى التى

يشهدها هذا البيت صامتا ، كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة ، وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحا يحمل على ظهره العارى آثار سياط حملت على أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه ... ثم نجده يتفجر عن ثورة جديدة ضحيتها إحدى الخادمات .

وفى مقابل هذا نجد ثناء على ادريس .. حتى ادريس — على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى اللهو ـ لم يسىء قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوته .

على أى حال هم المؤلف أن يضفى على روايته ثوبا شعبيا .

وفى خلق حواء من ضلع آدم ، قال الكاتب : وقف آدم ينظر إلى ظله الملقى على المشى ... فإذا بظل جديد يمتد من ظله ... بدا الظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه ، والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء .

وجاء فى سفر التكوين : « فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام ، فأخذ واحدة من ضلوعه وملأ مكانها لحما ، وبنى الرب الاله الضلع الذى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ... »

أما فى القرآن الكريم فجاء : «يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ....» وجاء : « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » .

وصور الكاتب حزن الاخوة على طرد ابليس من القصر وحزن أدهم معهم تصويرا رائعا لعله أراد به أن يمهد لطاعة أدهم لإدريس حين أغراه بفعل ما نهى أبوه عنه ، حتى إننا نجد أدهم ـ يذهب إلى أبيه شفيعا لادريس أن يعود ، ولعل ذلك من خديعة ادريس .

وبدلا من النهى عن الأكل من شجرة الحياة .. شجرة معرفة الخير من الشر ، جعل الكاتب للجبلاوى وصية ذات شروط عشرة ، وقد خبأها فى الحجرة الخاصة به ، ولكن ادريس وسوس لأدهم وزين له

أن يدخل الحجرة خلسة ويطلع على الوصية ، وأغرت أميمة ـ زوج أدهم ـ زوجها بذلك وما زالا به حتى خُدع فأطاع ، ولكنه ما كاد يفتح العلبة أو الصندوق الذى به الوصية حتى كان أبوه واقفا وراءه .

والذى يلاحظ هنا أن الكاتب انقاد لما جاء فى سفر التكوين من أن حواء أغرت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة فأكلا منها فبدا لهما جسمهما عاريا ، وفى القرآن الكريم « فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ... » ولم يلق المسئولية على حواء ، ولكنهما أيضا ومعهما الشيطان خرجوا من الجنة جميعا بعضهم لبعض عدو ، وكذلك فعل المؤلف فجعل آدم وزوجه يخرجان من البيت الكبير ، وقد شملهما الندم ، وادريس شامت فيهما ساخر منهما .

وأخذ الكاتب أيضا من سفر التكوين أن الرب الاله كان يمشى صباحا بين أشجار الجنة ، وعن الأمرين جميعا ـ اغراء حواء آدم بالأكل من الشجرة ، وتمشى الرب الاله بين أشجار الجنة ـ جاء فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين : ... «فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ... فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها منها أيضا فأكل .... وسمعا صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله ، اختبأ لأن سوءاتهما قد ظهرت وأصبحا لا يصلحان للاقامة فى الجنة » .

نزل آدم وحواء ونزل ابليس من قبل ، وكان لابليس أو ادريس ـ كما تخيل الكاتب ـ ذرية ، وهذا ما جاء فى الكتب المقدسة أيضا .

وجاء فى الاصحاح الرابع من سفر التكوين : وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قابيل ... ثم عادت فولدت اخاه هابيل ، وكان هابيل راعيا للغنم ، وكان قابيل عاملا فى الأرض .... » .. وقربا قربانين فقبل الله قربان هابيل .

وجاءت القصة فى القرآن أيضا : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق

إذ قرّبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك» الخ« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله» .

وتصرف المؤلف فى هذا الموقف بعض التصرف ، فجعل قدرى يقتل هماما ويدفنه فى التراب ، وكان الجبلاوى قد رضى عن همام وأرسل إليه ليحضر إلى بيته ، وذهب همام ودخل البيت الكبير فأنعشه وأعجبه جو الحديقة وقابل الجبلاوى ، وقد رجاه أن يعفو عن أبيه وأمه ، ولكن الجبلاوى سمح له بالذهاب إليهما للاستئذان فى الاقامة مع جده وقال له جده : إنه يحبه لأدبه وأنه سيتزوج فى هذا البيت ، وعاد همام ليستأذن ولكنه لم يرجع إلى البيت ، وقد قتله أخوه قدرى فى الصحراء إذ رماه بحجر فقتله .

والكاتب يصور هذا الموقف فى حوارات طويلة بين أدهم وأولاده وزوجه ، ولم يكن ادريس غائبا عن الموقف كله ، ولكنه ظهر فى غير مرة ، وظهرت معه ابنته هند ولكنها فجأة اختفت ولا يعلم أحد أين ذهبت .

الموقف كله يبرز فى صورة شعبية كلا من ادريس وقدرى فى صورة أشخاص شريرين ، غير أن ادريس خبيث ماكر يدبر الشر ويمد له أسبابه ، وقدرى مميز بقوته ، وكل منهما ساخط على الجبلاوى ، وقد دبت الغيرة فى نفس قدرى لاختيار الجبلاوى لهمام دون قدرى ، وتردد همام فى الذهاب وحده إلى البيت الكبير دون ذويه أو بقائه معهم على ما هم فيه من بؤس ، وطال الحوار بينه وبين أخيه وهما خلف أغنامهما فى الصحراء وانتهى جدالهما برمى قدرى أخاه بحجر فقتله ، ودفنه فى التراب ، ورجع وحده بالأغنام خائفا مرتعدا .

لا ريب أن المؤلف هنا يتبع فلسفة « فرويد » إذ يصف نزعة الشر تتغلب على نزعة الخير حتى تنال ما تريد ، فإذا انتهت عملية الشر بقتل أو جرح أو سرقة ، وغير ذلك ، استنامت غريزة الشر وشعر المعتدى

بالندم والأسف ، وقد صور المؤلف قدرى فى هذه الصورة ، فهو انكر قتل أخيه وتلعثم واضطرب وأخيرا ظهرت الحقيقة ، لقد كانت ملابس قدرى تحمل بقعا من الدم .. وذهبا معا إلى حيث دفن همام فاستخرجاه وعادا به إلى كوخهم ، ثم دفن بمقبرة تابعة للوقف عند باب النصر ، كان المعزون كثيرين ، واندس ادريس فيهم ولكنه كان يرى أن مصيبته هى بفقد بنته أشد من موت همام .

وجاء الجبلاوى إلى كوخ أدهم ، وعزاه وأخبره أنه عفا عنه ، وأخبره أن الوقف سيكون لذريته .

ترى ماذا يريد المؤلف بهذا الموقف ؟ لا أتبين منه إلا أنه تصوير لتوبة الله على آدم ، أو قبوله توبته كما جاء فى القرآن الكريم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ، «ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» .

ومرت الأيام فمات أدهم وماتت زوجته أميمة ثم مات ادريس ، وكبر الأطفال ، وعاد قدرى بعد غيبة طويلة ومعه هند ـ بنت ادريس ـ ومعهما انتشر العمران وارتسمت الحارة فى صفحة الوجود ـ ومن كل اولئك جاء أولاد حارتنا .

أذكر هنا أن قصة هابيل وقابيل جاءت هكذا فى القرآن الكريم :

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ، فأصبح من النادمين ... »

والآيات لم تذكر أسماء ولدى آدم ، وجاءت أسماؤهما فى كتب التفسير ، وذكر الشراح لهذا القتل أسبابا منها ، غيرة قابيل لعدم تقبل

قربانـه ، وقد كان بخيلا جدا فلم يقدم إلا شيئـا حقيرا ، وكان أحدهما زارعا والآخر صاحب غنم ، وقيل أيضـا إن حـواء كانت تلد ولدا أو بنتا فى كل ولادة لها ، وأن الولـد الذكر يتزوج مـن أخت لم تولد توءمـا له ، وكان من نسلها ابنتان إحداهما حسناء فـاتنة وهى توءم لقابيل ولكنه أراد أن يتزوجها ، وحقد على هابيل أن يتزوجها فقتله .

ومهما يكن من أمر قتلــه ، فإن المؤلف هنا نقل صلب الروايـة وهو التنـافس والقتل وأيضـا الـدفن فى التراب ، ولكنـه زاد فى الموقف نقل جثمان همام ودفنه فى مكان آخر ، ثم تعـزية الجبلاوى لأدهم ، ولست أدرى ماذا أراد بهذا الموقف إلا إلباسه مظهرا شعبيا .

ثم سرقة قدرى هند بنت ادريس وهـربه بها ، وحزن ادريس عليها كل ذلك مما لا تظهر لـه رمزيةٍ فى الرواية ، ولكنه تصـوير لنزعة الشر ولفشوها .

جبــــل

جبل هذا شخصية تقابل أو تمثل شخصيـة موسى عليه السلام ، وموسى عبرانى .

وقصــة العبرانيين فى مصر أنهم قـدمـوا إليهـا منـذ عهـد يـوسف الصـديق عليـه السـلام ، وعاشـوا فى مصر آمنين ممتعين وتنـاسلـوا وتكـاثروا حتى جـاء فرعـون لا يعرف يـوسف ، ولأسباب يـذكرهـا المؤرخـون غضب على العبرانيين ، فأمـر بقتـل ذكـورهم واستحيـاء نسائهم ، ولما ولـد موسى خـافت عليه أمـه وضعته فى تـابوت وألقت التابوت فى اليم ، فدفعت به الأمـواج إلى الشاطىء بجانب قصر فرعون فعطفت عليـه امرأة فـرعون ، وقـالت لزوجهـا نتخذه ولـدا عسى أن ينفعنا ، وربى موسى فى بيت فرعـون حتى كبر واشتد عوده ، وتعرف أصلـه فمال إلى العبرانيين ، ورثـا لحالهم ومـا يعـانـون من تعـذيب فرعون لهم فانضـم إليهم ، جاء هذا فى غير سورة من القرآن :

« وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجـاعلوه من المرسلين ، فـالتقطه

آل فرعون » . «وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له » .

وجاء فى سفر الخروج تفصيل أوسع :

« وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات ... وقال : حينما تولدان العبرانيات ... إن كان ابنا فاقتلوه ، وإن كان بنتا فتحيا ، ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا .

ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا : «كل ابن يولد تطرحونه فى النهر لكن كل بنت تستحيونها» .

وأم موسى « لما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر ، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد ، أخذت له سقطا من البردى وطلته بالحُمرَ والزفت ووضعت الولد فيه ، ووضعته بين الحلفا ، على حافة النهر .

فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل ... فرأت السقط بين الحلفا ، فأرسلت امتها وفتحته ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكى فرقت له ، وقالت : هذا من أولاد العبرانيين .

وتصرف مؤلف القصة « أولاد حارتنا » فى هذا تصرفا غير بعيد ، قال : « منذ عشرين عاما رأت الهانم (هدى هانم امرأة ناظر الوقف) طفلا عاريا يستحم فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار ، ومضت تتسلى بمشاهدته فمال قلبها الذى حرمه العقم من نعمة الأمومة إليه ، أرسلت من حمله إليها وهو خائف يبكى ، وتحرت عنه فعلمت أنه طفل يتيم ترعاه بياعة دجاج ، استدعت الهانم بياعة الدجاج وطلبت منها أن تتنازل لها عن الطفل فرحبت بذلك كل الترحيب ، هكذا نشأ جبل فى بيت الناظر وفى رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة فى الحارة جميعا ،

وأدخل الكتـاب فتعلم القراءة والكتـابة «ولما بلغ رشـده ولاه الأفندى إدارة الـوقف » وكان ينـادى فى كل بقعة فيهـا للـوقف أملاك بـاسم : «حضرة الـوكيل » وتتـابعت نظـرات الاجلال والإكبـار لـه أينما حل ، واستمرت حياته ودودا رخية حتى كانت ثورة وتمرد آل حمدان .

ولم يكن المؤلف حريصا على أن يذكر كـل ما جاء فى الكتب المقدسة فقد جاء فى القرآن وفى التوراة أن موسـى رُدّ إلى أمه لترضعه ، فتربى فى حضنها على أنه ولد لغيرها . جاء فى سفر الخروج :

« فقالت اخته لابنة فرعـون هل أذهب وادعو لك امرأة مرضعة من العبرانيـات لترضع لك الولـد ؟ فقـالت لها ابنـة فرعـو ن : اذهبى بهذا الولد وارضعيه لى ، وأنا أعطى أجـرتك ، فأخذت المرأة الولد و أرضعته ولما كبر الولـد جاءت به إلى ابنة فـرعون فصار لها ابنـا، ودعت اسمه موسى وقالت : إنى انتشلته من الماء . »

وفى القرآن الكريم :

« وقـالت لأختـه قصيـه فبصرت بـه عن جنب وهم لا يشعـرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم لـه ناصحـون ، فرددنـاه إلى أمه كى تقـر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولم يكن المؤلف بحاجـة إلى ذكر شىء من هذا لأنه لم يـذكر أن أم موسى ألقته فى اليم رضيعا ، ولكنه ذكـر أنه كان يلهو ويلعب فى بركة ماء ، وعمـره ست سنوات فلا حاجـة به إذن إلى الرضـاعة ، ولم يضع ذلك شيئا من بهاء القصة وتسلسل أحداثها .

وفى القـرآن أن امـرأة فـرعـون هى التى التقطت الطفل ورغبت فى تربيتـه لديها ، وفى التـوراة أنها ابنة فـرعون ، والمؤلـف افترض امرأة فرعون عقيما محرومة من نعمة الأمومة ، فلا بنت إذن لفرعون تلتقط رضيعا ، كذلك ليس هو بحاجة إلى ذكر إلقائه فى اليم .

وجـاء فى بـعض أقـوال الشـراح : أن امـرأة فرعـون كـانت عقيما لم تلد ؛ لذلك رغبت فى تبنى هذا الطفل .

ولم يكن من هم المؤلف على أى حال أن يتقيد بالنصوص الدينية .

والمعـروف عن حيـاة مـوسى عليه السـلام أنها مـرت بمـراحل : ميلاده ونشأته ، ثم قتله رجلا مصريا وهربه إلى مدين ، ثم زواجه من بنت شعيب « يثـرون » ثم عودته إلى مصر لاستخـلاص بنى اسرائيل من ظلم فرعـون ، ثم مقابلـة السحرة وانتصـاره عليهم ، ثم مجاوزته وقومه البحر ، ثم أخيرا حياته معهم فى التيه .

ولعرض هـذه المواقف كان نفس الكـاتب طويـلا ممتدا ، وقـد مهد لكل مـرحلة تمهيدا يتقبـل الأحداث التى وقعت بها ، وقـد رأينا بـداية حياته ، والمؤلف ذكرها عرضا عقب حديثه عن معاناة « آل حمدان » فى مصر ، وآل حمدان هم بنو اسرائيل .

بـدأ حـديثـه بوصـف الحارة .. حارة الجبـلاوى أطـول حـارة فى المنطقة ، أكثـر بيوتها ربوع ، وفيهـا ربع أو حى آل حمدان ، أما البيت الكبير فقد ترك على رأس الحارة خاليـا من جميع الجهات ، وقد أغلقت أبوابـه على صاحبه وخدمـه المقربين ، وماث أبناء الجبـلاوى مبكرين ولم يبق من ذريتهم إلا الأفندى ناظر الوقف فى ذلك الوقت ، أما سكان الحارة فكانوا من الطبقة البسيطة الكادحة وراء لقمة العيش .

وأبـدع المؤلف فى وصف الحيـاة الشعبية فى هـذه الحارة ، وواتتـه طبيعته وتـذوقه لحياة الشعبيين ، ثم موهبتـه فى إدارة الحوار ، فأطال فى هذا الوصف ، وغص حديثه بـالأسماء الشعبية أو « البلدية » القوم ضعاف ، ولذلك كـل شـاب يأنس فى نفسـه القوة والفتـوة يفرض نفسـه على الحى الـذى يقيم فيه ، ومن أسمائهـم : قدرة والليثى وأبـو سريع وحمودة ... ولكن الفتـوة الـذى كـانت لـه السيطـرة على الجميع هـو «زقلط» ولـذلك رأى الأفنـدى صـاحب الـوقف أن يستعين بـه لينفـذ

أوامره أو يـدفع عنـه ما قد يتهـدده ، لذلـك قربه إليـه ورتب لـه راتبا عظيما من مال الوقف ، وكان بيته يقابـل بيت الناظر ، فأقام به مكتفيا براتبه الواسع ، ولذلك هدأت المعارك فى الحارة ، ولم تحدث إلا نادرا .

ولعب الطمع بقلب الناظـر فأخذ يغـالط فى الحساب ويقتر الأرزاق ثم قبض يـده وامتنع عن العطاء مطمئنـا إلى حماية «زقلط » واضطـر السكـان إلى ممارسـة المهن الحقيرة ، وزاد عددهم فغـرقوا فى البـؤس والشقاء والقذارة ، وعمـد الأقوياء إلى الإرهاب والضعفـاء إلى التسول والسرقـة مـا استطـاعوا ، والفتـوات وحـدهم هم المنعمـون من مـال غـيرهم .

يـلاحظ أن هذه الحال ، ظلـت تتكررر فى مصر فى عهـود كثيرة من عهود تاريخها الدائم التطور فيها ، ويقول مؤلف الرواية :

« وهذه الحال الكئيبـة شهدتها بنفسـى فى أيامنـا الأخيرة ، صورة صادقة مما يروى الرواة عن الأزمان الماضية »

وكان « شعـراء المقاهى لا يقصـون على الناس إلا عهـود البطولات متجنبين الجهر بما يجرح مـراكز السـادة ، ويتغنون بمـزايا النـاظر والفتوات ، يتغنـون بعدل لانحظى بـه ورحمة لا نجدها ، وشهـامة لا نلقاها ، وزهد لا نراه ، ونزاهة لا نسمع عنها » .

كتب نجيب محفوظ هـذه العبارات فى الستينات ، وبان فيهـا ـ كما نعرف من رمزياته ـ تعريضـه بما كان فى ذلك الوقت ـ كل هذا والذين يسمعـون أخبـار مصر فى الخارج يحسبونها ممتعـة بسعـادة ليست لديهم ، لهذا يقول الكاتب :

« والأدهى الأمـر أننا محسـودون ، يقول أهـالى الحوارى حولنـا : يالها من حارة سعيدة ... ونحن لا ننال من الوقف إلا الحسرات ، ومن قوات فتـواتنا إلا الإهانـات والأذى ، وعلى ذلك كله نحن بـاقون ، وعلى الهم صابرون ، نتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى يجىء »

وليست الـرمـزيـة فى هـذا الكلام خيفـة ، حكـام المحـافظـات أو المديـريات ظـالمون وتحت إمرة كـل واحد منهم حكـام أدنى ، وكلهم ينالون من الناس ولا يرحمون أحداً.

كـان آل حمدان يقيمـون فى قمـة الحارة ، فيما يلى بيتى الأفنـدى وزقلط ، وكان رئيسـهم حمدان صـاحب قهوة ، أجمل قهوة فى الحارة ، وكـان بها الشاعـر يبدأ أنشـودتـه بتحية حمدان وزقلط والثنـاء على الناظر العادل الكريم ، ويتحدث عن حياة الجبلاوى قبل أن يولد أدهم والسـامعـون يعـرفـون أن هـذا الثنـاء زور وتلفيق فيثير الحديث فى نفـوسـهم لوعـة ويحفـزهـم حفـزا للمطالبـة بحقهم المنكـور ورزقهم المنهوب ممـا حملهم على تحريض حمدان على قيادة ثورة على النـاظر كى يـرد إليهم حقوقهم أو شيئـا منها ، واستجـاب القوم لهذا الـرأى فذهبـوا إلى الناظـر محتجين وعلى رأسـهم حمدان وفتوات آل حمدان ، ولدى البـاب أراد بواب البيت الكبير أن يصـدهم ، ولكنهم دخلوا ، ولم يأذن لهم الناظر بالجلـوس ولكنه وقف على السلم يسـائلهم عن سبب مجيئهم إليـه ، وبـذل حمدان جهـدا فى تملقـه والتلطف إليـه ، وشكـا الجميع حالهم من الجوع والبؤس ولكن الناظـر انتهرهم وقال : « هذا وقف أبى وجدى ما لكم بـه صلة ، إنكم تتناقلون الحكـايات الخرافية وتصـدقونها » ولم يجد الحوار معـه فتركهم ودخل بيتـه ولكنه كـان مصفر الوجه حذراً من هذه الثورة .

جلس الأفندى وزوجته يتبادلان الرأى إزاء هذه الكارثة ، فاقترحت الهانم أن يسلط الأفندى عليهم زقلط ، ولكنـه تخوف جبل فهو من آل حمدان وهـو قوى متين ، وطمأنتـه زوجتـه بأنه تـربى فى بيتهم ولن يخرج عليهم ، وجىء بزقلط فأسرف فى توعـده وما سيلقاه بنو حمدان منـه ، وعـاد جبل من عملـه فسمع وعيـد زقلط وسبـه آل حمدان فلم يرض هذه الاهانة لهم ، وكان حـوار بينه وبين الناظر وزوجته ، فأكد لهما أنـه لا ينسى فضلهما ولكنـه لا يتبرأ من قـومـه ولا يـرضى بما

يعـانونـه ، وذهب جبل لتصفية حســاب ما جمع من الـوقف ، وذهب جعلص إلى قهـــوة حمدان فحطم أدواتها وفـــوانيسهـا ، والفتـــوات الآخرون وحمدان نفســه يتلطفون إليـه ، وتفرق النــاس من المقهى ، وهدد زقلط آل حمدان جميعا وأمــرهم ألا يغادروا بيوتهم ولم يسعهم إلا الطاعة .

نال جبلا حــزن عميق لقومه ولأمه حتى النساء اتهمنه بـالخيانة ، فجلس مفكرا حزينا وقطع عليه تفكيره أحـد الفتوات العتاة يطارد أحد بني حمدان المعـروفين حتـى قبض عليـه وأوشك أن يقتلـــه والـرجل يستغيث بجبل ، وحــاول جبل أن يسكن الـــرجل ولكنــه لم يأبـه بـه فضربه جبل ضربة أفقدته الحياة .

جاءت هذه القصة في الإصحاح الثاني من سفر الخروج :

« وحدث فى تلك الأيـام لما كبر موسـى أنــه خرج إلى اخوتــه لينظر فى أثقالهم ، فرأى رجلا مصريا يضرب رجــلا عبرانيا من اخوته ، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنه ليس أحـدٌ ، فقتل المصرى وطمره فى الرمل ، ثم خرج فى اليوم الثانى وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان ، فقال للمذنب : لماذا تضرب صاحبك ، فقال : من جعلك رئيسا وقــاضيا علينا ؟ امفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى ، فخاف موسى و قال حقــا قد عرف الأمر ، فسمع فرعــون هذا الأمــر فطلب أن يقتل موسى ، فهـرب موسى من وجه فرعون وسكن فى أرض مديان وجلس عند البئر »

وجاء فى القرآن الكريم فى سورة القصص :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهــذا من عدوه ، فاستغاثه الــذى من شيعته على الذى من عدوه فوكــزه موسى فقضى عليه ، قال هــذا من عمل الشيطان إنه عـدو مضل مبين.... فأصبح فى المدينـــة خــائفـا يترقب ، فإذا الــذى استنصره بالأمس يستصرخــه (يستغيثه) قال له مـوسى : إنك لغوى

مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب ... »

وجاءت فى سور أخرى إشارات إلى هذا الحادث وإلى تخوف موسى « قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » وجاء قول فرعون له : «ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين .. »

ورواية التوراة تختلف بعض الاختلاف عن قصة القرآن مع اتحادهما فى وصف الحادث وخوف موسى وندمه ، ولم يفت المؤلف أن يشير إلى خوف موسى وأسفه وأنه لم يكن يريد قتل المصرى .

وفى الحديث عن المعركة الثانية تبع المؤلف قصة سفر الخروج فى أن المتخاصمين كانا عبرانيين .

وقد أثيرت قصة القتيل وهو فتوة من أتباع جعلص أمام الأفندى الناظر ورجته وجبل جالس معهما فلم يسعه إلا الدفاع عن آل حمدان ، ولكنه لم يذكر أنه قاتل الفتوة المصرى ، وانتهى الحوار بين الناظر وزوجته بأنه آثر أن يترك منزلهما ، وخرج واتجه إلى ربع حمدان حيث حدثت المشاجرة الثانية ، ورأى جبل أنه لا قرار له فى مصر فصمم على الهرب.

أدار المؤلف هذا الحوار فى الموقفين بفطنة تدرك ما يدور فى أعماق النفوس فى مثل هذا الموقف ، وقد كان جبل فى حواره مهذبا يذكر دائما أنه لاينسى فضل هذا البيت عليه ، ولما سأله الناظر : أمعه هو أم مع آل حمدان ، قال : لا أستطيع أن أقف ضدكم ، ولكنى لا أتحمل أن أرى إهانة قومى وأنا فى هذا النعيم عندكم .

وانتهى الحوار ـ كما رأينا بخروجه من البيت الكبير ذى الحديقة الواسعة النفاحة وانضم إلى آل حمدان على ما هم فيه من شقاء وما يعانون من المحاصرة وعدم القدرة على الخروج من بيوتهم .

وبهذا انتهت هذه المرحلة من حياة موسى فى مصر وخرج منها إلى مدين .

جاء فى سفر الخروج : « وكان لكاهن مديان سبع بنات ، فأتين واستقين وملأن الجرار ليسقين غنم أبيهن ، فأتى الرعاة وطردوهن ، فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن ، فلما أتين إلى رعوئيل ابيهن قال : ما بالكن أسرعتن فى المجيء اليوم ، فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة وإنه استقى لنا أيضا وسقى الغنم »

ورعوئيل هو يثرون وهو شعيب .

وتمضى القصة فتذكر أن موسى تزوج « صفورة » بنت رعوئيل ، ومكث عنده حتى مات فرعون ، ولكن اشتدت العبودية على بنى اسرائيل فى مصر ، وسمع الله أنينهم ، وكان لموسى ولد سماه جرشوم .

وجاء فى القرآن الكريم :

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهما امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ... »

« قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ... »

وشعيب نبى ذكرت قصته فى القرآن فى غير آية وغير سورة ، وليس كاهنا ولم يذكر القرآن له سبع بنات ولا ذكر أسماء البنتين .

ولم يشأ صاحب القصة أن يخرج بجبل إلى جهة بعيدة نائية ولكنه جعله يتسلل ليلا حتى خرج من الحارة، ثم أوغل فى الصحراء حتى وصل سوق المقطم ثم أوى إلى كوخ هناك ليستريح، وكانت هناك حنفية ماء عمومية، يملأ الشخص منها إناءه لقاء مليم واحد، واشتد الزحام حولها وعلا الصياح، وندت صرخات رقيقة حادة من فتاتين لم يستطيعا ملء آنيتهما فتراجعا من غير ماء، وذهب إليهما وأخذ يسألهما عن سبب خروجهما بلا ماء، وكانت إحداهما فاتنة الجمال مست شغاف قلبه، ولم يقبلا حديثه بادى ذى بدء ولكنهما أخبرتاه بحال أبيهما، فزاحم وملأ لهما آنيتهما، وأثناء ذلك قدم أبوهما، وهو كاهن معروف ورجل يحترمه الناس اسمه « البلقيطى » ـ فشكر لجبل حسن مروءته، وعرفه بنفسه أنه حاو، وكان جبل قد سمع بهذا الاسم فسر بلقاء الكاهن الحاوى وقص عليه قصته، فإذا هو أيضا يعرف الجبلاوى وجعلص، ثم اصطحبه إلى بيته وفيه حجرة مليئة بالأفاعى، وهو بيت ريفى متواضع فيه أدواته التى يستعملها فى مهنته، وأغرى جبل أن يتعلم أعمال الحواة ويكون حاويا.

البلقيطى داهية ماكر يكتشف ما تخفى الصدور من السرائر، وقد ألم بكل ما دار فى رأس جبل من الأفكار، واطمأن إليه جبل فقص عليه قصته، فقال له : هم قوم ظالمون وأنت رجل شهم، وتبين أن البلقيطى ينتسب إلى حارة الجبلاوى ومن حى حمدان، وفر من الحارة منذ صغره ضيقا بفتواتها.

وتزوج جبل من بنت « البلقيطى»، وجد فى تعلم أعمال الحواة فبرع فى هذا العمل حتى أدهش البلقيطى، واستأنس الثعابين والحيات فكان يعرض أعماله أمام الصبية فيستهويهم وينال الأجر الكثير على عمله. ومرة فوجىء بأحد فتوات بنى حمدان وهو يعرفه وكان يخشى أن ينم عليه، ولكن الرجل أخبره أن الحال قد تغيرت، ولكن آل حمدان يعانون مجاعة وهوانا وإهانة.

لم يجعل المؤلف جبل راعيا ، ولم يذهب به إلى مدين ، والحوار الشائق الذى أداره بين جبل والبلقيطى يأخذ بمجامع القلوب ، وقد جعله لا ينسى رفاقه بنى حمدان حتى وهو نفسه آمن مستريح ، كما كان يذكرهم وهو فى البيت الكبير عند الناظر وزوجته .

وبطبيعة الموقف طوى المؤلف حديث خروج جبل بأهله وإيناس نارا من العليقة ونداء ربه إليه أن يذهب إلى فرعون ، استعاض عن ذلك كله بوجود الصديق الذى ظهر فجأة وأخبره بكل شىء فى حارة الجبلاوى ، ومن هنا صح عزمهما معا على العودة إلى حىَ بنى حمدان وانصرف الزائر وعاد جبل إلى بيته .

بعد شهر أو نحوه ذهب جبل مع زوجه إلى حى بنى حمدان ، ذهبا إليه ليلا ، وطرقا بيت حمدان فدهش برؤية جبل ، وعلم الناس بمقدمه فجاء الكثيرون للقائه وكثرت الأسئلة حوله وعن سبب عودته ، ولكنه فاجأ الجميع بشىء عجيب هو أنه فى الظلام القاتم قابله الجبلاوى وقال له : عد لقومك وطالبوا بحقكم من الوقف .

ومقابلة الجبلاوى حدث استعاض به المؤلف عن رؤية موسى النار فى جانب الطور وأمر ربه له أن يعود لينقذ قومه : ، « إذهب إلى فرعون إنه طغى » .

وقد قابل جبل الناظر وزوجته وجرى بينهما حوار مؤدب لا يخلو من شدة ولكن جبل أصر على المطالبة بخلاص قومه واعطائهم حقهم فى الوقف .

كان مع جبل جرابه الملىء بالأفاعى ، وأطلع قومه عليها وأراهم كيف يعاملها ويدربها ، وظهرت فى الحى ثعابين نهش واحد منها ابن زقلط فمات ، وظهر فى بيت الناظر ثعبان كبير أزعج كل من فى البيت ، واستدعوا « جبل » فأخرج ثعبانين وضمهما إلى ما فى جرابه ، وقال له الفتوات : إن فى الحارة أفاعى كثيرة وإنهم يودون أن يطهرها من

الأفاعى ، فقال: ذلك عمل سهل ولكن لابد له من ثمن ، والثمن هو إطلاق سراح بنى حمدان واعطاؤهم حقهم فى الوقف .

وجمع الناظر الفتوات فرأوا أن الموقف حرج جدا ، وأن بنى حمدان إذا أخذوا حقهم فى الوقف فسيطالب الآخرون أيضا بحقوقهم ، وأخيرا استقر رأيهم على إبادة بنى حمدان .

لجأ جبل وقومه إلى حيلة ناجحة ، فحفروا فى دهليز الربع حفرة غطوها بغطاء واهن وواروها بالرمال ، وجاء الفتوة الكبير ومعه فتواته الآخرون فهددوا سكان الربع ولكنهم ما كادوا يخطون إلى الداخل حتى انهار بهم غطاء الحفرة وسقطوا فيها ، فانهالت عليهم النبابيت والأحجار ، ومات الفتوة الجبار الذى كان الناظر يتخذه سندا وأداة له .

ذهب آل حمدان ومن انضم إليهم من كانوا يخافون الفتوة الكبير إلى بيت الناظر وهم يهتفون بحياته ، ولكن لما جاء جبل أمرهم بالانصراف ودخل هو ليقابل الناظر ، وطلب منه حق آل حمدان فى الوقف ، ولم يسع الناظر المرتجف الخائف إلا الموافقة ، وظفر آل حمدان بوقفهم وجاء الآخرون يطلبون من جبل حقهم أيضا ، فلم يصغ لمطلبهم .

لم يشأ جبل أن يكون فتوة الحارة ، ولم يشأ أن يستأثر بشىء لنفسه فوق ما أخذ الآخرون ، وأجرى العدل بينهم فى كل شىء ، حتى فى القصاص وباتت الحارة فى أمان .

ماذا يقصد المؤلف بهذا الموقف كله ؟

هى قصة موسى وفرعون ، وظلم فرعون وانتصار موسى ، ولكن « جبل » هنا لم يخرج ببنى حمدان من مصر كما خرج موسى ببنى اسرائيل ، ولم يفارق حمدان ولا فارقت « جبل » ولا أحد من الجماعة كلها فارقته أنانية حرصه على التعالى وازدراء الآخرين حتى وهم فى

أيـام محنتهم ، ولعل المؤلف أراد بهذا تصـــويـر التعـالى اليهـودى ، واستشعار اليهود دائما أنهم الشعب المختار ، ولهذا كان «الجبلاوى» بجانبهم ونصيرا لهم ، والناس جميعا عيـال الله وخلقه ، ولكن اليهود هم الذين اختـارهم الله ووعدهم بامتـلاك أرض واسعة ، هذا زعمهم ، وقد تردد فى القصة أن أبناء الحارة جميعـا لهم أوقاف مغصوبة ولكن « جبل » بعد انتصاره قال لهم : إن الجبلاوى أوصاه بقومه فقط .

هذه حقـا هى أنانيـة اليهود وحـرصـهم على العمل لأنفسهم ، دون غيرهم ، فهم يستفيـدون من النـــاس ولا يفيـدونهم ، ولهم تـدبيرهم الخفى وحسن التـأنى لمواجهـــة الأحــداث ، ولــذا يقــول جبل : إن الجبلاوى أوصاه بقومه فقط ، فهذه إحدى رمزيات المؤلف .

رفاعة

رفاعة هذا هو الشخصية التى اختارها المؤلف لتكون رمزا للمسيح عليه السلام ، والمسيح لم يولد فى أورشليم ولا الناصرة ، ولكنه ولد فى بيت لحم ، إذ كان القيصر أمر بإجراء تعداد للسكان وكل واحد يسجل فى البلد الذى ولد فيه ، فاضطرت السيدة مريم ويوسف النجار خطيبها ومن معهما أن يذهبوا إلى بيت لحم حيث جاءها المخاض هناك وولدت يسوع .

وحرصا على الإشارة لولادته بعيدا عن البلد الذى كانت تقيم فيه مريم ويوسف النجار ، جعل المؤلف الشخص الذى أطلق عليه اسم الشافعى يخرج هو وامرأته مضطهدين إلى سوق المقطم ، ولتمصير القصة وإلباسها ثوبا شعبيا لم يتقيد الكاتب بالنصوص الدينية ، ففى الأناجيل وفى القرآن أيضا أن المسيح ليس له أب بشرى ، وأن الله نفخ فى جوف مريم هذا المولود ، وقد كانت مريم فى كفالة زكريا زوج خالتها وخطبها نجار يدعى يوسف ، وكانت له قبلها زوجة ماتت وله منها أولاد ، وظهرت على مريم أعراض الحمل قبل أن يعرس بها خطيبها فقال اليهود : إنه تعجل قطف الثمرة قبل نضجها ، وظل يوسف مرافقا لها وعنى بها وبالمسيح حتى نهايته .

عندما أعلن المسيح رسالته كانت مساوىء اليهود وسيوء تصرفاتهم فاشية فى وسطهم ، وكانت فرقهم العديدة من الفريسيين والصدوقيين والآسيين والشيوخ والكتبة .. كلهم — مع ما درسوا وعلموا — يعبدون المادة ولا يعنيهم شىء مثل ما يعنيهم جمع المال ، وهم مع مفاسدهم يعيبون الآخرين ، وكان المسيح يهيب بهم : «يا أولاد الأفاعى ترون القذاة فى أعين الناس ولا ترون الخشبة فى أعينكم» .

وقد استعاض المؤلف عن هؤلاء بالفتوات الذين بسطوا سلطانهم على الحارة وخافهم أهلوها ، وهم فى قرارة أنفسهم غير راضين عنهم .

ودعنا من قبل حديث جبل الذى يقابل شخصية موسى عليه السلام ، وموسى جاء بالتوراة والوصايا العشر ، وتتابع من بعده الرسل لهداية بنى اسرائيل ، لكن شريعة موسى بدلت واندثرت ، وظهرت جماعات تنتسب إليها ولا تعمل بشىء منها ، ولذلك لما ظهر رفاعة كانت الحارة قد تغيرت ، وذهب فتواتها وظهر آخرون ، وتغير الناظر وأعوانه — أما الجبلاوى — فظل رابضا فى قصره أو على الأصح فى حجرته ، والناس يترقبون كلمة منه تصلح حالهم وترد للمظلومين حقوقهم ، ونجد لمحات الظلم فى مثل هذا التعبير الذى جاء فى كلام الشافعى :

ما أجمل الحياة لولا وجود زنفل (الفتوة) الحياة عامرة بالخيرات والهواء النقى والسماء المرصعة بالنجوم والمشاغر الطيبة ، ولكن فيها أيضا ناظر الوقف والفتوات ... وفى الإمكان أن يصير كل ربع كالبيت الكبير ، وأن ينقلب الأنين ألحانا ولكن المساكين يتمنون المحال كما تمناه أدهم (آدم) من قبل ، ومن هم المساكين ؟ إنهم أقفية متورمة من الصفع ، وأدبار ملتهبة من الركل ، وأعين يرعاها الذباب ، ورؤوس يعيش فيها القمل . أين الجبلاوى ؟

افترض المؤلف أن « الشافعى » غاب عن الحارة عشرين عاما ، ذلك ليهيىء لرفاعة عمرا يستطيع فيه أن يعظ ويرشد ويعلم .

كانت رسالة المسيح هى الدعوة إلى اتباع تعاليم التوراة ، ولكنها تركزت على تطهير النفوس من الأحقاد وإشاعة المحبة بين الناس ، وعمل الخير للجميع ، والرواية تشير إلى ذلك فى غير موضع من محاوراتها .

كان كهنة اليهود قد أغلقوا باب التوبة ، وكانت الزانيات يرغبن فى التوبة فلا يجدن فى رأى الكهان لها قبولا ،لكن المسيح فتح بابها لهن ، وقال : إذا لم يغتسل المدنسون فى النهر فأين يغتسلون ، وأهاب بمن حوله : أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم سامحوا من أساء إليكم ، وجاءوه مرة بامرأة زانية يريدون رجمها ، فقال : تريثوا قليلا اغمضوا أعينكم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ، وإلا فلينصرف . وبعد دقائق لم يبق فى الموقف غيره وغير المرأة ، قال : اذن انصرفى .

ولعل شخصية ياسمينة التى اخترعها المؤلف تشير إلى ذلك , فقد جاءوا بها يريدون قتلها لأنها كانت فى بيت أحد الفتوات المنحرفين ، ولكن رفاعة قال لهم : أنا أتزوجها ، وتزوجها فعلا ونجت من القتل ، ولكن مريم النامطية الزانية أكبت على أقدام المسيح تقبلها وظلت محبَّة له ، أما ياسمينة فظلت على علاقتها بعشيقها ثم أخيرا وشت برفاعة .

لم يتقيد المؤلف بسيرة المسيح كما جاءت فى الأناجيل لأنه يريد قصته أن تكون ذات طابع شعبى ، فيه المقاهى والصور ، وفيه الأكاذيب والخداع وأكل أموال الآخرين بغير حق .. وفيه .. وفيه ، وقد كان المجتمع اليهودى فى عهد السيد المسيح يموج بكل هذه المحرمات .

افتتح الشافعى ــ والد رفاعة ـ دكان تجارة ، وبدت بوادر الربح تهبط عليه ، ولكن ابنه لم يقبل أن يعيش معه فى هذا العمل ، وجنح إلى

الدعوة لإشاعة الحب والسلام ، كان أهل الربع وأهل الحارة لا يشغلهم الحديث عن الوقف وحقهم فيه الذى سلبه الناظر وفتواته كما كان الحال فى عهد جبل ، ولكن جبل انتصر أخيرا ، ولم يخلف انتصاره على قومه سعادة طويلة المدى ، ورفاعة لا يعنيه الوقف ولا الحصول على مال وكل ما يعنيه هو إيثار الحب والسلام . ولكن «كيف يتسنى للحب والسلام أن يعيشا بين الفقر ونبابيت الفتوات» هذا ما كان يجيب به الناس حين يدعوهم لمذهبه .

ولعله لشيوع الظلم الرومانى وثقل الضرائب وضيق الناس بهذا الحكم كثر فيهم المفلوجون والمرضى والصرعى ، وكثر فيهم لذلك الروحانيون ومن يحترفون علاج الشياطين وإخراج العفاريت من الأجسام ، وللمسيح فى هذا مواقف كثيرة تذكرها الأناجيل ، وأورد المؤلف شخصية « أم بخاطرها » تخلص الممسوسين من عفاريتهم ولديها جميع ما يحبون من بخور سودانى وتعاويذ حبشية وأغان سلطانية ، وتقول : لكل إنسان عفريت هو سيده ، ولكن ليس كل عفريت فى إنسان يجب أن يخرج .

واستهوت رفاعة أحاديث هذه السيدة ، ورأى على جدار المقهى صورة للجبلاوى ضخمة تبدو البيوت بجانبها كعلب الكبريت ، فتعلق بها قلبه ، وسأل هل من رآه ؟ لم يره أحد . وهذه صورة خيالية صورها مصورها حسبما سمع من الناس ، ولكن « جبل » قال : إنه قابله فى الظلام وسمع كلامه ولم يتبين ملامحه ولم ير شخصه ، وظل رفاعة متعلقا بهذه الشخصية ورغب عن كل شىء من المتع المادية ، حتى أن فتوة الحارة اللصيق بناظر الوقف رغب أن يزوجه ابنته الحسناء الفاتنة فلم يسترح لهذا العرض ، وكانت أمه تغريه بالزواج منها ولكنه أعرض كل الاعراض ، وعجب أبوه لهذا المذهب منه ، ولكن هذا الذى حدث .

تغيب رفاعة عن محل أبيه وبيته مدة حتى شغلهم القلق لغيابه ،

وتحدث بـه الناس ، وذهب كل واحـد يلتمس سببـا ويفترض مكانـا تغيب فيه ، وفى الأناجيل أنه أصعد إلى البرية وصام أربعين يوما ، وهو لما سمع أن يـوحنـا المعمـــدان قبض عليـه انصرف إلى الجليل وتـرك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، فذكر المؤلف هذا الغياب يشير إلى ذلك وجـاء فى كلام رفـاعة : « ضقت بحيـاتى فذهبت إلى الخلاء ، شعـرت برغبة فى الوحدة والخلاء ، ولم أكن أتركه إلا لشراء الطعام »

وكانت الخلوة فى البرية أو على رؤوس الجبال عادة الأنبياء من بنى اسرائيل .

وعن بداية الوحى للمسيح وتلقيه الأمر بـدعوته جاء فى الرواية على لسان رفاعة :

« أمس عقب خروجى من بيت الشاعـر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى الانطـلاق فقصدت الخلاء ، مشيت فى الظلام حتى تعبت ، ثم اخترت مكـانـا أسفل سـور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسنـدا ظهرى إلى الســور ، سمعت صوتـا غـريبا يتكلم ، كأنما كـان يحدث نفســه فى الظلام ، فـدهمنى شعور مشرق بـأنه صـوت جدنـا الجبلاوى ، وقـد قمت عند استماعى الصوت فاستـدرت نحو البيت ، وتـراجعت إلى الـوراء لأتمكن مـن رؤيتـه ، ولكنى لم أر إلا ظـلامـا ، سمعت الصوت وهـو يقول : « أما جبل فقـد قام بمهمته ، وكـان عند حسن الظن به ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه » .

« هتفت قائلا : يا جدى جـبل مـات ، وخلفـه آخـرون ، فمـد إلينـا يدك ـ »

جدى سمعنى ، وجاءنـى صوته قائلا : « ما أقبح أن يطـالب شـاب جده العجـوز بالعمل والابن الحبيب من يعمل » فسـألتـه : وما حيلتى حيال أولئك الفتوات ، أنـا الضعيف » فأجابنى : « الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الأغبياء »

« وأعـرف الآن ما يـراد منى ، نعم إنى ضعيف ولكن لست غبيـا ، والابن الحبيب من يعمل » !

وحزن الـوالد لهذا الكلام إشفـاقا على ولده ولكنـه طمأنه بأنهم لا يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف وهو لا يتطلع إليه .

وقال لوالـده : إن الذين قبله طالبـوا بالوقف ليظفـروا بحياة رغدة هادئة ولكـن مادام الحصول عليهـا ميسورا بغير الـوقف فما أرخص الوقف » .

ويـدور هنا حـوار وتطفو فى ذهن الـرجل وأيضا فى ذهن زوجتـه خواطر وكلهـا تصور العراك بين طلب الحياة الماديـة ونشدان الحياة الروحية والمعنويات .

وقـرر رفاعـة أنه لن يكـون مثل «أم بخـاطرهـا» تنتظر الأغنيـاء ليحضروا إليها وتنال مـن مالهم ، أما هو فقرر الـذهاب إلى المرضى فى بيوتهم وهو لا يقبل على عمله أجرا ، وانقطع عن دكان أبيه وعن العمل فيـه وعن أى عمل سوى آل جبل ودعـوتـه لهم ليخرج العفـاريت من أجسامهم .

يبدو أن العفاريت فى هذه الرواية رمـز للأحقاد الدفينة فى النفوس والترامى على المادة ومراءاة النـاس ، فقد كـانت دعوة المسيح مـركزة على تطهير النفـوس ومحاربة الـرياء ، وإخـلاص الأعمال لله ، وكـان يقول لتلاميذه : « احترزوا من أن تصنعـوا صدقتكم أمام الناس لكى ينظروكم ، وإلا فليـس لكم أجر عند أبيكـم الذى فى السماوات ، فمتى صنعت صـدقـة فـلا تصوت أمـامك بـالبـوق كما يفعل المراءون فى المجامع والأزقة لكى يمجدوا من الناس» .

ومن جـانب آخـر كـان يحارب الشياطين ، ففى انجيـل لوقـا أنـه استقبلـه رجل من المدينة كـان فيه شيـاطين منـذ زمن طويل ، وكـان لايلبس ولا يقيم إلا فى القبـور ولما رأى يسـوع صرخ وخـر لـه وقـال

بصوت عظيم : مالى أطلب منك ألا تعذبنى ، لأنه أمر الروح النجس أن يخرج من الانسان .

وفى موضع آخر : أن رجلا شكا إليه أن ابنه الوحيد تقمصه روح فيصرخ بغتة ويصرخ مزبدا ... وقدم الابن إليه وبينما هو آت مزقه الشيطان وصرعه ، فانتهر يسوع الروح النجس وشفى الصبى .

فالرمزية قد تشمل الأمرين ، ولكنا نجد رفاعة هذا يعترض الأصحاء ويعرض عليهم أن يطهرهم من العفاريت الشريرة التى بهم ، حتى «أم بخاطرها» التى هى كربة زار وتعمل على إخراج الشياطين من الناس يميل عليها رفاعة فى رفق ويقول لها : « هلا سمحت لى بأن أطهرك أنت مصدر خير وبركة ولكنك لا تخلين من طمع يحملك على الاتجار بالمرضى ، ولو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن » .

وكان يقول : « إن جدنا يود لنا السعادة» ورد ذلك ضمن أقواله لجبل وذلك إشارة لما كان يدعو له المسيح قومه إلى اتباع التوراة التى تلقاها موسى .

ويورد المؤلف قصة المرأة التى دعته لشفاء ابنها الممسوس واستجابته لها ، وهى بنفسها القصة المذكورة فى الأناجيل ، ويقول لزوجته : « ستكونين أفضل وأجمل عندما تقهرين الغرور ، ليس آل جبل بخير الناس فى حارتنا ، خير الناس أطيبهم » وقد كان المسيح ـ عليه السلام ـ يقول لأتباعه : لا تقولوا إننا ذرية إبراهيم ، إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أبناء لابراهيم .

ويقول لزوجته : «كنت مخطئا مثلك ، فخصصت آل جبل باهتمامى ، ولكن السعادة لا يستحقها إلا من ينشدها مخلصا ، انظرى إلى الطيبين كيف يقبلون على وكيف يبرأون من العفاريت »

وهذا ناظر إلى أمر المسيح لأتباعه أن يبشروا ويدعوا الخراف الضالة من بنى اسرائيل ، ولما لم يستجب الاسرائيليون أمرهم أن

يدعوا الناس جميعا ، وضرب مثلا بالـرجل الذى أعد طعاما ودعا إليه قوما معينين ولما لم يحضروا أمر بنداء الناس جميعا من كل مكان .

أعرض الاسرائيليـون وخصوصا رجـال فرقهم الدينيـة عن دعوة المسيح وناصبوه العداء ، أما الآخرون الذين شفى مرضاهم فأحبوه ، وكانوا يتحدثون به وبعملـه . وعرض المؤلف عددا من الذين برئوا على يديه بأسماء ابتكرها وأمراض عديدة كانوا يشكونها ثم صاروا ببركة عمله أصحـاء سعداء وكانوا يقـولون له : أنت سر سعادتنـا ، سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفـاء لاحظ لنا فى الوقف ، وهو يقول لهم : لم يستطع جبل أن يغير النفـوس بنيله حقـه فى الـوقف ، ولما رحل انقلب الأقوياء مغتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع ، أما أنا فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه .

الحق أن المؤلف أحسن تصـوير مسلك المسيح ودعـوته الـروحية لإصلاح القلـوب وتطهير النفوس وإعـراضه عـن المال والمادة ، وكان يقول لتلاميذه : «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقـون ، بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسـد سوس ولا صـدأ وحيث لا ينقب سارقـون ولا يسرقـون ، لا تقدروا أن تخدمـوا اللـه والمال ، لا تهتموا لحيـاتكم بما تأكلون وبما تشربون ... » .

وهذا هو ما يكرره رفاعة عن احتقـار الوقف واعراضه عن المطالبة به لآل جبل واهتمامه بتطهير النفوس وإخراج العفاريت من الأجسـام ، حتى لنجد زوجته تقول : إنه لا يعنيه غير إسعاد الفقراء .

جاء فى انجيل متى : « وإذ كان يسـوع ماشيـا عند بحـر الجليل أبصر أخوين ، سمعـان الذى يقال لـه بطرس ، واندراوس الـذى أخاه يلقيان شبكة فى البحر ، فإنهما كانا صيادين ، فقال لهما : هلما ورائى فأجعلكما صيادى ناس ، فللوقت تركـا الشباك وتبعاه ، ثم اجتاز من

هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زيدى ويوحنا أخاه في السفينة فدعاهما فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه »

وفي **الرواية أيضا** أن رفاعة اختار اربعة ذكر أسماءهم ، ولما قال لهم إني لاأصلح للعمل وحدى وأريدكم أن تعملوا ، فرحوا فأخذ يوصيهم ، وجاء في وصيته : « ... طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للاتقياء القلب ،لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام ، ... طوبى للمطر ودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى لكم ، إذا عيروكم وطردوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين ، افرحوا وتهللوا ، لأن أجركم عظيم في السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم »

والرواية في غير موقف تبدى إعراض رفاعة عن المال وعن الوقف والدعوة فقط إلى التطهر ، رغم ما كان يقابله ويقابل أتباعه من متاعب .

وأخيرا يأتي الحديث عن نهاية رفاعة ، والكاتب يقرب بها صفة نهاية المسيح ، وكان السيد المسيح في نهاية أيامه مطاردا من الجيش الروماني ، وكان يسهر الليل يشكو برحاءه ووجده ، وينام حواريوه من حوله ، فيقول لهم : أسهر وتنامون ، وكان يذكر لهم أن واحدا منهم سيخونه ويشى به ، وكان الخائن منهم هو يهوذا الاسخريوطي فهو الذى قاد الجنود إليه.

وأشار المؤلف إلى هذا الموقف فجعل ياسمينة زوجته الداعرة التى انقذها هى التى تشى بأسراره وما اعتزم عليه من الهرب هو وحواريوه ، وتنتهي كل ذلك إلى بيومي كبير الفتوات وأشدهم جحدا ، وبينما كانوا يحاولون الهرب فاجأهم بيومي ، فقبض على رفاعة بيد حديدية ، وانضم إلى بيومي فتوات آخرون ، وانهالوا جميعا ضربا بالنبابيت على رفاعة حتى مات ، فحفروا له حفرة ألقوه فيها وهالوا عليه التراب .

ونهاية المسيح فى الأناجيل تختلف عن هذا الوصف ولكنه اختلاف غير بعيد ، كل من الوصفين ذكر الظلام ، وجاء فى الرواية أن رفاعة هتف باسم الجبلاوى وتمنى لو يخلصه ، وجاء فى إنجيل لوقا : وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة ، وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه ونادى يسوع بصوت عظيم ، وقال : «يا أبتاه فى يديك أستودع روحى ، ولما قال هذا أسلم الروح .. » وهذا يقابله نداء رفاعة : يا جبلاوى .

وقد أسف حواريو المسيح لأنهم أنكروه وتركوه للمهانة والعذاب ، وقالوا : إن هذا كان جبنا منهم ، وجاء فى الرواية حوار بين أصحابه يتلاومون ، وواحد منهم يقول لرفاقه : يا جبناء ما أنتم إلا جبناء ، لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبننا .

قتله خصومه وانصرفوا فى الظلام وجاء أصحابه الأربعة فتلمسوا مكانه واهتدوا إلى الحفرة التى دفن فيها ، فأزاحوا عنه التراب واستخرجوه فلفوه فى ثيابهم ومضوا إلى مقبرة أحدهم فغيبوه فيها ، ورثوه والعبرات تتساقط من أعينهم :

« كانت حياتك حلما قصيرا ، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء ، وما كنا نتصور أن تغادرنا بهذه السرعة فضلا عن تقتل بيد أحد أبناء حارتنا الجاحدة التى داويتها واحييتها . لولا حبك الباقى فى قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد» .

وهذا تصوير لما لام به حواريوه أنفسهم . كان فراق رفاعة أشد من الذبح على قلوبهم ، وكان تخليهم عنه معذبا قاتلا ، ثم اختفوا بعيدا عن الحى .

وشاع بعد ذلك نبأ قتله وذهب الناس يبحثون عنهم فهدتهم بقع دم إلى المكان الذى قتل فيه وحفروا مدفنه ولكنهم لم يجدوا شيئا .

ونذكر نهاية المسيح كما جاءت فى الأناجيل لنرى مدى تصرف المؤلف فيها ، وكيف ألبسها هذا الثوب .

بعد أن علق المسيح على الصليب، جاء رجل اسمه يوسف ... تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع ، وأنزله ولفه بكتان ووضعه فى قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط ... وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده ، فرجعن واعددن حنوطا وأطيابا .

ثم فى أول الاسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذى أعددنه ومعهن أناس فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر ، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع .

وفى انجيل مرقس تصوير آخر فيه :

فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح .

وكانت أيضا نساء يصرخن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة ... وأخر كثيرات .

جاء يوسف الذى من الرامة ... فتجاسر ودخل إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع ... فاشترى كتانا ، فأنزله وكفنه بالكتان ووضعه فى قبر كان منحوتا فى صخرة ودحرج حجرا على باب القبر ، وكانت مريم المجدلية ، ومريم أم يوسى تنظران أين وضع .

وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم ام يعقوب وسالومة حنوطا ليأتينه ويدهنه ، وباكرا جدا فى أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس .... فتطلعن ورأين أن الحجر قد دحرج .

واختلفت صورة قيامة المسيح من قبره فى الأناجيل ولكن المؤلف حرص على أن يذكر أن الذين جاءوا لم يجدوا فى القبر أحدا ، وافترض أنه نقل إلى مقبرة لأحد أصحابه .

وبعد نهاية المسيح على الأرض كثرت الأقاويل واختلفت الروايات فى مقابلة أصحابه ، والمسيحيون يعتقدون أنه رفع إلى السماء فى سحابة ارجوانية وجلس **عن يمين أبيه فى السماء** .

وجاء فى القصة : « وتناقلت الحارة قصة رفاعة ... وتنوقل أيضا أن جثته ظلت ملقاة فى الخلاء حتى حملها الجبلاوى بنفسه فواراها التراب فى حديقته الغناء ... » وهذا ما يقابل الرفع إلى السماء .

لم يدع الرومان عداء المسيحيين بعده ، فكان هؤلاء يجتمعون سرا ويتخذون قرارات ، وعانت المسيحية اضطهادات كثيرة أليمة ، لكن الدولة أخيرا اضطرت إلى التسليم بالمسيحية واقرارها دينا رسميا للدولة ، ثم أخذت تذيع وتنتشر .

وصور المؤلف هذا الانهزام أمام أتباع رفاعة فقال :

«كادت الأحداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لولا أن اختفى الفتوة حندوسة اختفاء مريبا ، وإذا بجثته .. ذات صباح ملقاة مشوهة أمام بيت الناظر ...

ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب ، انصب الاعتداء كالمطر على كل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو أحد من رجاله ، انهالت النبابيت على الرؤوس ، وهرست الأقدام البطون وحفرت اللكمات الصدور ، وألهبت الأيدى الأقفية حتى حبس نفسه فى داره من حبس ، وهجر الحارة من هجر وقتل فى الخلاء من استهان بالخطر ... ومن عجب أن ذلك كله لم يقض على عمل العاملين» .

هذا تصوير لامتداد الدعوة المسيحية واستمرارها رغم الاضطهاد .

وتذكر الرواية ظهور أصحاب رفاعة الذين اختفوا وأنهم قاموا بثورة هوجاء فقتلوا الفتوة الأكبر بيومى وفر أعوانه ، واستطار الشر وانقض على من بقى من الفتوات وأعوانهم :

« عند ذلك أرسل الناظر فى طلب على فذهب على لمقابلته ... فهدأت

الأحـوال وسكنت الخواطر » وعلى هـو أحـد الحواريين الأربعة الـذين اختارهم رفاعة .

وتمخضت المقابلـة عن عهد جديد ... وعـاد إلى الحى الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة فى فترات الارهاب .

وجدت الـدولة الرومـانية نفسهـا أمام دين آخذ فى الانتشـار وأنه يهدد وحدة الدولة ، فاضطر الامبراطور أن يفـرضه دينا للدولة كلها ، وعاقب من لم يتخذه دينا ، وحظـى المسيح بتكريم لم يظفر ببعضه فى حياته ، وتدارس المسيحيـون فى كل مكان أنه رفع إلى السماء وأنه حى هناك .

وجاء فى الـرواية : «وحظى رفاعـة فى موتـه بما لم يكن يحلم به فى حياتـه من التكريم والاجلال والحب حتى صـار قصة باهرة يـرددها كل لسان ... وبخاصة رفع الجبلاوى لجثته ودفنها فى حديقته الغناء ، وقد أجمع الرفاعيون على ذلك» .

وتنـوعت اتجاهـات المسيحيين فى عبـاداتهم وسلـوكهم الـدينى ، فهناك الرهبـان الذين حرموا على أنفسهم الـزواج ووقفوا حياتهم على خـدمة الانسـانية والبتـولة ومسـاعدة كل من يحتـاج إلى مساعـدة ، وهناك من رأوا عبـادة الله والقربى إليه فى السلوك المستقيـم والدعوة إلى الرحمة والمحبة ولكنهم تزوجوا .

وجـاء فى الـروايـة : «لكنهم اختلفـوا فيما عـدا ذلك ، فأصر كـريم وحسين وزكى على أن رسـالـة رفـاعـة يجب أن تقتصر على مـداواة المرضى واحتقار الجاه والقوة ... وغالى منهم قوم فتجنبوا الزواج حبا فى محاكاته ... أما على فتمسك بكافة حقوقه فى الوقف» .

« وعلى أى حـال استبشر النـاس خيرا واستقبلوا الحيـاة بـوجـوه مشرقة »

هذه قصة المسيح عليه السـلام وجهاده فى سبيل الحق ودعوته إلى المحبة كما طـاب لنجيب أن يصورهـا ، ونحن نختلف معه فى كثير من مواقفها خصوصا المواقف التى تتعلق بالجبلاوى .

قاسم

هذه هى الشخصية التى تمثل نشأة وجهاد نبى الإسلام محمد ﷺ ـ ولعله ليس من قبيل المصادفة أن اختار هذا الاسم . فكما اختار من قبل أسماء قريبة أو شبيهة بأسماء الذين تحدث عنهم ،فاختار لآدم أدهم ولإبليس ادريس . اختار اسم قاسم ـ لأبى القاسم محمد ﷺ ـ والصفات التى ذكرها والأحداث التى أوردها تنطبق عليه ، ولكنه على عادته ـ حوّرها أو اخترع لها حدثا مشابها .

وقاسم نشأ يتيما وتربى فى كفالة عمه زكريا ، ورسول الله محمد تربى فى كفالة عمه أبى طالب ،واشتغل فى صباه برعى الغنم ، واشتهر بين قومه بالصدق والأمانة .

وقاسم كان راعى غنم ، كان يجمع الأغنام من أصحابها ويصعد بها فى الصحراء ويعود بها آخر النهار ليوزعها على اصحابها ، وكانت هذه هى مورد رزقه ، على أنه يجد لدى عمه طعامه ومأواه .

أضفى المؤلف على مواقفه كلها صبغة شعبية ، وجعل أهل الحارة على ما كانوا عليه ضعافا فقراء يخضعون لسلطة جماعة من الفتوات يلقون عليهم أوامرهم ويشاركونهم أرزاقهم أو يغتصبونها كلها ،

وأهل الحارة جميعـــا لهم نصيب مـن وقف الجبـــلاوى ، ولكنهم لايصلـون إليـه أو لا يصل إليهم ، والجبلاوى معتكف فى حجـرتـه فى قصره ويموت نظاره ، فيعين بدل الناظر الذى يموت ناظرا غيره ، وهو لا صلة له بالجماهير ولا يستطيع أحد أن يقابله ، ولكن إلى يمين البيت الكبير بيت النـاظر ، ويقـابلـه بيت الفتوة الـذى يستعين بـه الناظـر ويسلطه على الناس .

وفيما بعـد البيت تتميـز ثلاثـة أحيـاء ، حى جبل الـذى حل محل ربوع حمدان ، ثم حى رفاعة فى وسط الحارة ، ثـم يأتى بعده بمسافة حى الفقراء جدا الـذين لاصفة لهم ولا نسب ، ويسمون « الجرابيع » ولكل حى فيهـا جميعـا فتـوة ، وسهـــرات المقـاهى لاتـزال كما هى ، وشاعر المقهى يتحـدث عن أدهم وإدريس وهمام وقدرى ....والناس يستمعون ويشربـون ، ولكن حى جبل معتز بنفسه مباه بقـرابته من الـواقف ، ويـرى أنـه خير حى ، والمؤلف يشير بهذا إلى مـا يعتـد بـه الاسرائيليون أنهم شعب الله المختار « ولذلك قَلَّ أن أحبهم أحد » .

وحتى الجرابيع كان لهم فتوة واستقرت الأوضاع على ذلك ، وحملة النبابيت الفتـوات يؤكدون للنـاس أنهم يجرون على تعاليم ووصـايا الواقف العشر ، والشعراء يمجدونهم ويكررون الثناء عليهم .

وأورد المؤلف بضعة أحداث بعيدة عن حيـاة النبى محمد ونشأته ربما ليبرر عمله ويـوهم أنه يقصـد فقط مجرد شاب فى الحارة ، ولكن مهما ذكر فـرمزياته واضحـة قريبة . من ذلك أن «قـاسم» هذا دخل حـديقة البيت الكبير واستحم فى فسقيتهـا ثم انتهره النـاظر وطـارده البواب .

وشب قاسم وقال لـ عمـه : اعمل معك ، فقبل . ففرح ومضى أمام عربتـه ـ وهو بـائع بطاطا ـ ينـادى عليها ، ويبدو أن هـذه الحادثة فى مقابلة رحلة النبى ﷺ مع عمه إلى الشـام فى تجارة .

وقد قـابل العم وابن أخيه رجلا عجوزا فـرّحب بهما وألبس قاسمًا حجابا ، ولعل هذا أيضاً فى مقابلة بحيرا الراهب وتنبئه بأمر محمد ﷺ وكان لايزال طفلا أنه سيكون نبيا ويكون له شأن عظيم .

وجـاء فى كتب السيرة أن رسـول الله ﷺ صبَّ بعمـه أبـو طـالب ـ تعلق به ـ وهو متهيىء للرحيل إلى الشـام ، وكان عمره تسعة أعوام فى بعض الروايات واثنتـى عشرة سنة فى أشهر الروايات . فأمسـك بناقة عمه ، وقال ياعم : إلى من تكلنى ؟

فرَّق له عمـه واصطحبه معه وأردفه خلفـه ، ومر ركبهم بصاحب ديـر قريب من بصرى ، وكـانوا يمـرون به من قبل فـلا يعبأ بهم ولا يخاطبهم ، ولكنه فى هـذه المرة استضافهم وعمل لهم وليمـة وطلب أن يحضروا جميعـا . أحـرارهم ومواليهـم ، سادتهم وأتبـاع سـادتهم ، كبارهم وصغـارهم ، فقال له رجـل منهم لصاحب الديـر ، وهو بحيرا الراهب : إن لك اليـوم شأنا ، ما كنـت تصنع هذا بنا ، وكنـا نمر عليك كثيرا .. واجتمعـوا لـديـه كلهم وتخلف رسـول الله ﷺ من بين القـوم لحداثة سنـه ، ونظر بحيرا فى القوم فلم يـر فيهم أحدا لـه الصفة التى يريدهـا ، فسألهم : هل تخلف منهم أحد ؟ . فقالـوا ما تخلف أحد إلا غلامـا هو أحـدث القوم سنـا ، فقال : لا ، لاتفعلـوا ، أدعوه فليحضر ، وأحضره عمـه الحارث بن عبـد المطلب ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظـه ، وبعد الطعام أخذ يسأله عن أشيـاء من حاله ورسول الله ﷺ يجيبه ، ثم أخـذ يسأل عمه أبا طـالب عنه ، ثم قـال له : ارجع بـابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه يهود ، فو الله لئن رأوه وعرفـوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم ... فهذا يقـابله إلباس يحيى له الحجاب ووصيته له بالمحافظة عليه .

أما دخول قاسم حديقة البيت الكبير وتمتعـه بشذاها ومائها ، فلا مغزى لها بعد فى القصة ، وربما كانت إشـارة إلى رحلة المعراج لولا أنه ذكر هنا أن البـواب والناظر طَرداه ، ولكن من ناحية أخـرى قد تكون

هذه المطاردة وهـذا الانتهار فى مقابلة تكـذيب القرشيين رحلة الإسراء والمعراج .

وتحول قـاسم من بائع بطـاطـا إلى راعى غنم ، وكان بين الأغنـام التى يرعاها نعجة لسيـده فى حى الجرابيع تدعى « قمر » وهى السيدة الـوحيـدة التى تملك مـالا فى هـذا الحى الفقير . وقـالت لـه مـرة : إن نعجتها تسمن وتمتلىء بفضل رعـايته الحسنة لها . ثم مـالت نفسـها إليه فأرسلت خـادمتها إليه تعـرض عليه الزواج من قمـر ، واستغرب عمه وزوج عمه هذه الفكرة لثراء قمر وفقر قاسم .

الرمزية هنا قريبة جدا .. فالسيدة خديجة أستأجرت محمدا ﷺ ـ ليرعى تجارتها الـذاهبـة إلى الشام فـربحت ربحـا كثيرا وأعجبت هى بأمانتـه فمالت إلى الزواج منه ، ونمـو النعجة هو ربح التجـارة ، وقد أرسلت فعلا إلى النبى تطلب الزواج .

كـان لقاسم صـديقان هما حسن ابن عمـه ، وصادق الـذى ليس قريبا لـه ولكنه يقاربه فى سنه ، وقـد رافقاه ناشئا وعـاوناه بعد ذلك مجاهدا .. ويبـدو أن المؤلف يرمـز إلى الصديق ابى بكـر وعلى بن أبى طالب وحوادث القصة الآتية بعد تؤكد هذا.

ويأتى بعد ذلك حادث رمزيته بعيدة ولكنها محكمة .

سرقت حـافظة النقود من رجـل كان قد عمل فى البيـت الكبير ونال اجـرا كبيرا فأخـــذ يصيح ويقـــول : سرق اللص نقـــودى، وقـال الفتوات :

نفتش الاحياء ونبـدأ بحى جبل ، لكن فتوة حى جبـل لم يقبل هذه التهمـة . إذن نبدأ بحى رفـاعة فلـم يقبل فتوتـه أيضـا .. وثـار الجدل واللجـاج بين الفتـوات حتى اوشكت أن تقـوم معـركـة تـذهب فيهـا الرؤوس . ولكن قاسما تقدم بـاقتراح ، وهو أن تطفأ جميع الانوار كى يلقى السـارق الحافظة ، ثم تضـاء ثـانيا فيجـد الناس الحافظـة ولا

يغرف السارق وتنجو الاحياء كلها من شرور المعركة . وراقت الفكرة لديهم ، ووجدت حافظة النقود وأخذ الناس فى الثناء على قاسم وأعجبوا بحسن رأيه

هذا رمز لموقف رسول الله ﷺ يوم أن اختلفت القبائل القرشية على وضع الحجر الاسود فى مكانه من الكعبة ، ثم لما جاء رسوا الله ﷺ وضع عباءته ووضع عليها الحجر واشتركت القبائل فى رفع الحجر باشتراكهم فى تناول اطراف العباءة ، وقد سر الناس جدا وأثنوا على هذا الرأى.

وفى هذا الموقف اسرف المؤلف فى جعل قاسم ورفاقه وعمه يبالغون فى الشراب والسكر وكان أحرى أن يجعلهم أطهارا أبرياء يترفعون عن الشرب والسفاهات .

عويس ابن عم « قمر » هو ورقة بن نوفل الذى كان مرجع السيدة خديجة فى كثير من المشكلات .

وعن بداية الوحى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ صور المؤلف بطله قاسما وهو عند الصخرة وحده خاليا مع نفسه غارقا فى أفكاره آسفا على أبناء الحى المحرومين ، واذا شخص طويل فارع الطول لم يتبين وجهه جيدا ، وقال له : « أنا قنديل خادم الجبلاوى ، وارتاب فيه قاسم فقال قنديل له : أتبعنى حتى ادخل البيت الكبير ، وتبعه حتى أتى سور البيت فإذا سلم عال جدا ـ وليس فى الحارة سلم يرتفع إلى السور ، ورقى قنديل على السلم حتى غاب .

قال قنديل لقاسم : إن الجد الكبير بخير ، وإنه يعلم كل شىء ، وأن المقيم فى البيت الكبير يستطيع ان يطلع على كل كبيرة وصغيرة مما يقع فى الحارة ولذلك ارسل بقمر إلى قاسم وقال له : لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة ولأمانتك فى بيتك ، وهو يبلغك بأن جميع أولاد الحارة أحفاده على السواء وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة ، وان الفتونة

شر يجب أن يذهب .. قال قاسم : ولماذا يبلغنى ذلك ؟ - فأجاب قنديل : لكى تحققه بنفسك.

هذه الصورة اذن رمز لما كان رسول الله - ﷺ - يعمله اذ حبب إليه الخلاء ، وجاءه جبريل عليه السلام بأول آية قرآنية فرجع بها يرجف فؤاده ، وقنديل هو جبريل - عليه السلام - وصعوده على السلم العالى هو رقيه إلى السماء فى ليلة الإسراء .

وعندما أعلن رسول الله - ﷺ - رسالته صدقه قليلون منهم الصديق أبو بكر وعلى وكان صبيا ، وقال ورقة : إنه الناموس الذى أنزله الله على موسى وعيسى ، وآمنت به زوجة خديجة ، هؤلاء لم يعهدوا عليه كذبا فلم يستسيغوا أن يكذبوه . وعرض المؤلف هذه الصورة فى حوار بين زكريا عم قاسم ، وعويس كبير الحارة . قال زكريا : إنك أكبرنا مقاما وجاها فصارحنا برأيك . وقال عويس : أقول الحق إن « قاسم » رجل ولا كل الرجال ولكن حديثه ادار رأسى ، وقال صادق : أتحدى أى مخلوق أن يذكرنا بكذبة صدرت عنه ، فهو عندى مصدق .. وأقسم لكم على ذلك .. وقال حسن بحماس : وأنا كذلك ، وسيجدنى دائما إلى جانبه .

ولم يؤمن عويس برسالته ولا زكريا ، ولكن « حسن » أعلن إيمانه برسالته . وهذا الموقف معروف فى السيرة ، إذ وقف على صغره بين القريشيين وأعلن تصديقه محمدا ﷺ .

كان القرشيون جامدين على ما ورثوا من عادات آبائهم ، وكانت نظراتهم مادية بحتة ، يخافون على مكانتهم ويخافون على أموالهم وقد سواهم محمد بمواليهم وجعل للفقراء حقا فى مالهم ، ولم يكن رسول الله - ﷺ - ينظر إلى شىء من الجاه أو المال ، وظن قومه أنه يريد الملك أو المال ، وقالوا : إن كنت تريد ملكا ملكناك وان كنت تريد مالا جمعناه لك ما يجعلك اكثر مالا .

وفى الرواية لمحات من هذا فى غير موقف ، من ذلك قول عويس : اننا نعد الطامح إلى الفتونة مجنونا فما بالك بمن يطمح إلى نظارة الحارة جميعا ؟ وقال قاسم : لست طامحا إلى شىء من هذا ، إنما أريد الخير الذى أراده جدنا ، وإن كان من العرب من ينكر وجود الله . جاء فى الرواية:

« اين هو جدنا ، فليخرج إلى الحارة ولو محمولا على اعناق خدمه ، ثم فليحقق شروط وقفه كما يشاء .

وقال قاسم : لن أقلع عما فى رأسي ولو ملكت الوقف كله .

وجاء مرة أخرى فى كلامه:

« إذا أذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كما نريد فلم تحرم منه أمرأة سيدة كانت أو خادمة ، قال الواقف : إن الوقف للجميع ......»

وهذه إشارة إلى قانون المساواة الذى جاء به الإسلام ، وقد كانت المرأة فى الجاهلية محرومة من الميراث ، ولكن الإسلام قرر لها حقها فى ذلك .

تآمر قاسم ورفاقه وصمموا على تنفيذ ما اعتزموا عليه ، وقالوا : إن الوقف للجميع ولا مكان بعد للفتوات ولا للناظر ، وبسبب ذلك كثرت مساءات الفتوات واعتداؤهم على قاسم حتى نجد واحدا منهم يفرغ على رأسه مقطفا من التراب ، ولعل ذلك إشارة إلى ماكان يفعله أبو جهل وكبار القرشيين وإلقاء سلا حيوان على النبى ﷺ وهو يصلى .

استقر رأى الناظر والفتوات على قتل قاسم ، وفى هذا الوقت الحرج ماتت ، قمر وهذا ناظر إلى موت السيدة خديجة ، ولم يكن لقاسم وصحبه بد من الهرب ، وسبقه عدد من الأتباع الضعفاء ، ثم تسلل فى ظلام الليل فلحق بهم فوجد مكانا آمنا ، واستقبله الصبية بالأغانى والأناشيد ، واستقر فى مكان وراء الجبل بعيدا عن أحيائهم .

أبدع المؤلف تصــوير مســاءات القرشيين وموت السيـدة خديجة ، وأحداث الهجـرة ، وكما كان فى على بن بـى طالب عـون كبير فى افلات النبى من إيـذاء قريش كـا ن لحسن ــ ابن عم قـاسم ـ عـون كبير فى إفلات قـاسم ، وكان لصـادق يد طولى كـذلك ، وقد أرسل إليـه ابنته بدريه للمسـاعدة أيضاً ، وبدريـة تمثل السيدة عائشة ، وقـد تزوجها قاسم أيضاً.

وفى الحديث عن مواقف الفتوات وتـذمرهم من رأى قاسم ، لم يفت المؤلف أن يشير إشـارة أو اشارات عـابـرة من حصار بنى هـاشم فى الشعب ، ولكن هـذه مرت خـاطفة فى صورة حبـس قاسم وأصحـابه ومنعهم من الخروج من بيـوتهم « مضت أيـام وأسـابيع وأشهـر وقاسم لا يفـارق داره » . كذلك لم تفتـه الإشارة إلى تعذيب أصحـابه المستضعفين فى مكة ، وقد كـانوا يسامون أشق أنـواع الهوان ـ جاءت الإشارة لهذا فى صـورة شخص اسمه شعبـان وقد كان فى طـريقه إلى بيت قاسم ، ولكن اعترضه الفتوة « سوارس » وهو فتوة حى الجرابيع فاشتبكا فى عراك انتهى بقتل شعبان .

وسـوارس هذا قـد يكون صـورة لأبى جهل أو ابى لهب أو غيرهما من أمثال أميـة بن خلف ، وهؤلاء الاثرياء الأقـوياء بمكة ، وقد عـذبوا المستضعفين طـويلا ، منهم من مـات ومنهم من فـر من مكة خفيـة ، وكانوا يراقبون المهـاجرين ويمنعونهم من الهرب ، وقد صور المؤلف هذه الصورة ورددها كثيرا .

وتصرف المؤلف فى حـادث الهجـرة فصـور عـددا من الفتـوات يرصـدونه ، ولكنـه تمكن من الهرب قبل أن يـدخلوا بيتـه ولما دخلوا وجـدوه خـاليا ، وفـر قـاسم وحسن تحت جنـاح الظـلام ، ثم انضم إليهماصادق وآخرون وركبوا عربة يجرها جواد وأفلتوا .

ويوم هجـرة رسول الله ﷺ ــ كان أربعـون من فتيان قـريش قد

استعدوا لقتله ، ولكنه افلت ليلا ، وتحت ستار الظلام ذهب هو وأبو بكر إلى الغار ثم ركبا ليلا وذهبا قبل أن يدركهما أعداؤهما .

ولإلباس الموقف ثوبا شعبيا جعلهما المؤلف يفران على عربة يجرها جواد . ودخل الأعداء البيت فلم يجدوا به احدا ، تماما كما دخل الشبان بيت رسول الله ﷺ ليلة هجرته فلم يجدوه. وتصرف المؤلف هنا أنه جعل « حسن » يفر مع قاسم ، ولم يشأ أن يورد الحادث حرفيا .

وبعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة قامت بينه وبين مشركى مكة حروبا كان أولها غزوة بدر ، وفيها قتل الملأ من قريش وهم أكابرهم ، وقتل ابو جهل الذى كان شديد الشكيمة على المسلمين ، وساد الحزن مكة بعد هذه الموقعة ، وتربص القوم لموقعة تالية ، وهكذا توالت الغزوات حتى كان فتح مكة وساد الإسلام .

والمؤلف يصور هذه المعارك على أنها معارك بالنبابيت اختلطت فيها الأصوات وشاركت النساء الرجال واستعملت الحجارة ، ولكن قتل الفتوة « لهيطة » وقد تكون هذه الشخصية رمزا لأبى جهل ، فإنه قتل يوم بدر ، ولم يأخذ الأعداء الثائرون جثة «لهيطة» كما لم يأخذ القرشيون جثة أبى جهل بل كان بين أصحاب القليب وكانوا عددا معروفين ، وجاء فى الرواية قول قاسم : تقدموا هذه جثة فتوتكم ، وورائى جثث رجالكم الآخرين .. »

وفى غزوة أحد جرح رسول الله ﷺ - وفى الرواية قال صادق لقاسم : «إن الدم يسيل من أسنانك وذقنك » هذا لأن رسول الله ﷺ ضرب بحجر من ابن قمئه . فأصاب رباعيته ووقع على الأرض . وعن حزن المكيين والدهشة التى أصابتهم بعد أن قتل صناديدهم وكبراؤهم يوم بدر جاء فى الرواية :

« لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل ، رجع الرجال صامتين

ذاهلين ذابلين غاضين الأبصار كأنما شدت جفونهم إلى اديم الأرض ، ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة ، وأن الربوع ترتج باللطم والعويل ، وانتشر الخبر فى الحارات والأزقة وباتت سمعة الحارة الرهيبة أحدوثة تلوكها ألسنة التشفى ... » .

وحقا كانت عاقبة وقعة بدر ذات مثار للدهشة من رجال العرب الآخرين ، فضلا عما حدث بين أبناء مكة .

وانتقل المؤلف سريعا إلى غزوة الفتح فتح مكة ، وفيها أخذ المشركون على غرة ولم يسعهم إلا الإستسلام ، عدا محاولة فاشلة قادها صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ولكنها لم تستطع الثبات وفر صفوان وفر عكرمه ولحقت القوم السيوف المسلمة ضربا ولا تسمع إلا دمدمة ، وظن القوم أن المسلمين سيفتكون بهم جزاء ما قدموا لهم من مساءات ، ولكن رسول الله ﷺ - قال : إذ هبوا فأنتم الطلقاء ، وكان خالد بن الوليد هو الذى شتت الجماعة التى قادها صفوان وعكرمة ، ولكن رسول الله - ﷺ - لم يكن راضيا عن هذه الحرب . وقال : اللهم إنى أبرأ اليك مما يفعل خالد ، وأعلن بين الناس المساواة والعدل ، ففرحوا واطمانوا .

وتقتطف من الرواية هذه العبارات :

« التفت اناس .. رأوا « قاسم » أمام البيت الكبير» .

« ضج المكان بصيحات التحذير وتتابعت الأحداث فى سرعة خاطفة أمسكت الأيدى عن الضرب كأنما شلت» .

« وصاح قاسم بأعلى صوته : لا نريد أذى لأحد ، لا غالب ولا مغلوب ، أبناء حارة واحدة . وجد واحد ، والوقف للجميع ..»

وأشار المؤلف أيضا إلى وقعة الخندق التى فر منها صفوان وعكرمة فوصف فتوة الحى ينقض على قاسم ورجاله ، وفتوة الحى هنا هو « جلطة » ، « وانقض عليه حسن وصادق وهو مشتبك مع

قاسم ، فضرب صادق نبوته وهوى حسن بنبوته على رأسه .. واندفع يجرى كالثور الذبيح .. انتهت المعركة . سكتت أصوات النبابيت وصرخات الرجال . وقف المنتصرون وهم يلهثون ويمسحون الدماء عن الوجوه والرؤوس والمعاصم وخاطب صادق « قاسم » قائلا : انتصرت ، نصرك الله ، ان جدّنا لا يخطىء فى اختياره » .

« وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة غير منازع » .

« ومضت اربعون يوما فى هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس وأطمأنت القلوب الكبيرة وقال : هنا يقيم الجبلاوى ، جدنا جميعا ، ولا تمييز فى الانتساب إليه بين حى وحى ، أو فرد وفرد ، أو رجل وامرأة» .

« تهللت الوجوه فى دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن يسمعوا مقالة رجل ملك وانتصر . »

وفى هذا اشارة الى وقفة رسول الله ـ ﷺ ـ عند باب الكعبة وقوله للناس : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وإلى إعلان كلمة التوحيد وشعائر الاسلام .

« وتبادل الناس النظرات كأنهم فى حلم » .

« فى ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم ، وآخرون عن هزيمتهم ، ونظر الجميع الى الغد كأنما ينظرون الى بزوغ البدر فى ليلة من ليالى الربيع .. »

« ولم تنعم حارتنا قبله بمثل ما نعمت به فى أيامه من الوحدة والألفة والسعادة » .

تحدثت الرواية بعد ذلك عن حياة قاسم وسلوكياته . وكلها صور من حياة النبى الكريم .

تحدثت عن المنافقين الذين كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام

وهم من اليهود الـذين انفوا من اتباع نبـى أمى من العرب وهم شعب الله المختار . فجـاء فيها : « أجل كـان ثمت آحاد فى آل جبـل يضمرون غير ما يظهرون ، ويتهامسون فيما بينهم : « انكون من جبل ويحكمنا جربوع من الجرابيع ، ومثلهم وجـد فى آل رفاعة ، بل لم يخل الجرابيع من نفر أخذتهم العزة والزهو .. »

وحقا لم يدخل العرب جميعـا فى الاسلام يوم الفتح ، ولكن جاءت وفـودهم الى المدينة بعـد ذلك .. منهم من اذعن لكل تعاليم الاسـلام ، ومنهم من اراد ان يشترط اعمالا خـارجـة عن الـدين وطبعـا لم يجب اليها .

وأوثر أن أنقل هذه العبارة كما جاءت فى الرواية :

« ورأى الجرابيع فيـه طرازا من الـرجال لم يـوجد مثله قبلـه ولن يوجد مثله بعده ، جمع بين القوة والرقـة والحكمة والبساطة ، والمهابة والمحبة ، والسيـادة والتواضع والنظارة والامـانة والى ذلك كلـه كان ظريفا بشوشا انيقا ، وعشيرا تطيب مودته» .

وأشـارت الروايـة ايضـا الى ازواج النبى ـ ﷺ ـ وهـو قد تـزوج سودة بعد خديجة وقبل عائشة ، واكتمل فى عصمته تسع من النسـاء ، وتزوج من يهوديتين هما صفيـة بنت حيى ، وجويـرية بنت الحارث ، وقـد اسلمتا ، ولم يتـزوج نصرانيـة ، ولكن المؤلف قال : « فعلى حبـه لبدريـة تزوج من حسناء من آل جبل واخرى من آل رفـاعة . وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضـا »

ولعله يقصد بهذا زينب بنت عمه التى كانت زوجا لزيد بن حارثة ، وهو لم يتعشـقها وتزوج منها لغـرض ذكره القـرآن الـكريم إذ قال : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجنـاكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج أدعيـائهم اذا قضـوا منهن وطـرا .. » والمؤلف جـارى بعض المستشرقين ، وليست هذه أولى أخطائه .

وذهب يذكر تعليل هذا الزواج وما يقال فيه فقال :

« وقال الناس فى ذلك : انه يبحث عن شىء افتقده من فقد زوجته الأولى قمر ، وقال عمه زكريا : انه يريد ان يوثق اسبابه بأحياء الحارة جميعا » .

والمؤلف هنا ـ وهو دون ريب ـ يحاكى بها شخصية النبى الكريم محمد ـ ﷺ ـ يسىء اليه إذ يردد أفكار الكتاب الغربيين عنه ، وهم يتهمونه بأنه زير نساء وأسير شهوات . فجاء فى كلامه :

« لكن حارتنا لم تكن بحاجة الى تفسير او تعليل لما حدث ، بل الحق انها اذا كانت اعجبت به لأخلاقه مرة فقد اعجبت به لحيويته مرات ، وأن حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ، ومنزلة تعدل فى درجتها الفتونة فى زمانها أو تزيد »

وهذا كلام ما ينبغى ان يكتب فهو إهانة وعدم تفطن لحقيقة الأمر ، وكان ينبغى ان يذكر أو يشير إلى ان اللائى تزوجهن « قاسم » بعد بدرية كن من الثيبات ، أو يشير إلى ما حدث من تزوجه واحدة من آل جبل ، وأن زواجه منها كان بركة على ذويها ، وأن عددا كبيرا من قومها انضم اليه وأنس به . وذلك إشارة إلى ما حدث من دخول عدد كبير من اليهود فى الإسلام بسبب زواج النبى ـ ﷺ ـ من صفية أو جويرية .

ولكنه وصفه من قبل بالصدق والأمانة وإشاعة المساواة بين الناس ، ثم جاء فى ختام الفصل :

« ومهما يكن من أمر فإن حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقا ، وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظر يستغل ، أو فتوة يستذل ، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الإخاء والمودة والسلام »

فواضح من هذه العبارات أن السلام والاخاء والمودة والمساواة التى نشرها الاسلام لم يكن لها نظير من قبل .

وفى موضع آخر جاء فى الرواية قول قاسم :

« آه لو تستقم الامـور فلا يبق لك يا حارتنـا الا الفناء ! غدا يمتلىء النـادى بالأعـوان الاقويـاء والصـادقين . غدا ، نتحـدى بهم الناظـر والفتوات وجميع العقبـات ، كيلا يبقى فى الحارة الا جـد رحيم واحفاد بـررة ، ويمحق الفقـر والقـذارة والتسـول والطغيـان ، وتختفى الحشرات والذباب والنبابيت .. وتسود الطمانينة »

ويبدو فى هـذا التصوير مبـادىء الاسلام الساميـة من حب العدل والمساواة وكراهية الطغيان والظلم .

وطـاب للمؤلف ان يصـور زفة زواج على الطـريقة الشعبيـة ، وأن يصور حيـاة قاسم بعد زواجـه صورة شخص يتمتع بـا لمال وأوقات الفراغ ، ثم كـان من دماثة اخلاقـه ولين جانبه ان احبه العمـلاء الذين يستأجرون امـلاكا من قمر ، وكـان الناس حتى عـويس ابن عم قمر يظنون انه سيتخذ من هذا المال وسيلـة للبذخ والمتع الآثمة ، لكنه كان ينشد سعـادة الناس جميعا ولم يشأ أن يكـون فتوة ولا صـاحب قوة على الآخرين ، وكـان يقول : « العبرة بالقـوة التى تصنع الخير ، كقوة جبل وقوة رفاعة لاكقوة البلطجية والمجرمين »

وهكذا كـان رسول الله ـ ﷺ ـ ينشـد مـا جاء بـه النبيون من قبـلـه ، والرواية ذكـرت فقـط « جبـل » الذى يحـاكى شخصـية « موسى » ورفاعة الذى يحاكى شخصية عيسى .

وجاء ايضا فى الرواية :

« ما اعطفه على أولاد حارته الـذين يحـلمون بالسعـادة عبثا لمـاذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله ؟ » .

« ولعل هذا التسـاؤل حير يوما جبل ، كما حير يـوما آخر رفـاعة ، كان فى وسعهما ان ينعما بـالراحة ويخلدا الى السكينـة والسلام ، فما سر هذا العذاب الذى يطاردنا ؟ »

ونجد صورة اخرى لالتفاف المستضعفين حول النبي محمد ـ ﷺ ـ وإعداد انفسهم للنضال فى سبيل عقيدتهم . وجاء فى الرواية :

« وها هو حوش بيته يستحيل ناديا لتقوية الابدان وتطهير الارواح وهو مثلهم يرفع الاثقال ويتعلم التحطيب . وصادق امتلأت عضلات ذراعية . أما حسن فياله من مارد عملاق ، والآخرون ما ابهر حماستهم .. أجل إنهم قلة ولكنهم لطموحهم اذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم »

وكان قاسم يقول : « لماذا يكذبنى آل جبل ورفاعة . ومنهم من قابله الجبلاوى أو حادثه . لماذا يكذبوننى وهم اولى الناس بتصديقى وتأييدى ؟ »

وبعد الانتصار العظيم الذى يصور فتح مكة ، ودهشة الناس للتسامح الذى لم يكن احد يتوقعه .

جاء فى الرواية :

« فى ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم وآخرون عن هزيمتهم ، ونظر الجميع الى الغد المأمول كأنما ينظرون الى بزوغ البدر فى ليلة من ليالى الربيع » « ووزع قاسم الريع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والانشاء ، أجل كاد نصيب الفرد ضئيلا ، ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق كل حد .. »

وهذا تصوير لتوزيع الغنائم بعد الاحتفاظ بجزء منها هو الخمس لبيت المال . وحقا بعد فتح مكة سادت مبادىء الاسلام وانقطعت مظالم الجاهلية ، وغمرت الناس سعادة لم يكونوا يحلمون بها ، ولكن حياة رسول الله ـ ﷺ ـ لم تطل بعد ذلك ، فانتقل إلى الرفيق الأعلى بعد عامين تقريبا ، وخلفه الصديق أبو بكر ، بينما كان أنصار على يرون أنه الأحق بالخلافة ، ثم ما لبثت الخلافة ان تحولت ملكا عضوضا ، ثم جاء خلفاء لم يرعوا واجب القوانين الاسلامية ، وربما ظهرت

بعض التقاليد الجاهلية من عصبيات القبائل وانتصار بعضها لبعض أو عداء بعضها لبعض .

وجــاء فى الروايــة :

« المتأمل لحال حـارتنا لا يصـدق ما تقـول الربـاب فى القهوات فى جبل وفى رفـاعة وفى قـاسم .. أين قـاسم والحارة الـواحدة والـوقف المبذول لخير الجميع ، وماذا جاء بهذا النـاظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين ! ستسمع بين الحسرات والضحكات أن صـادق خلف قاسم على النظارة فسار سيرته ، وان قومـا رأوا أن حسن أحق منه بالنظارة لقرابته من قاسم . لأنه الرجل الذى قتل الفتوات وانهم حرضوا حسن على رفع نبوته الذى لا يقاوم فأبى أن يعـود بالحارة إلى عهد الفتونة ، لكن الحارة كـانت قد انقسمـت على نفسها ، ومضى أنـاس فى آل جبل وآل رفعة يجاهرون بما كانوا يضمـرون . ولما رحل صادق عن الدنيا اسفرت الـرغبات المكبـوتة عن وجهها الشـائه . ونظراتها العـدوانية ، واستيقظت النبابيت بعد رقاد .

وهـذا كله يصـور ما ذكـرنا ، ولكن هـذا الخروج على القانـون لم يحدث بعـد الصديق مبـاشرة ، فهناك العهـد الراشـدى ، عهد يمتـاز بسيـادة القانـون الاسـلامى ، قانـون العـدالـة والمساواة والـرفق بالضعـاف والفقراء وقد كان الامـام على طامحا الى الخلاقة بعـد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ وتباطأ فى بيعة أبى بكر ، لكنه لم يشأ أن يشق عصا الطاعـة وان يقسم الدولـة وهذا ما يفهم ايضـا من جملة : « حـرضوا حسن على رفع نبـوته الـذى لا يقاوم فأبى ان يعـود بالحارة الى عهـد الفتونة »

لكن بعـد هـؤلاء ، سفـر العـداء بين الأمـويين والعلـويين ، ثم بين الامويين والعباسيين ، واشتدت الكـراهية وحب الانتقام ومن ذلك قتل زيد بن الحسن بن على فى عهـد هشام وصلبـه مدة طويلـة ، فلما جاء

العباسيون نبشوا قبور الامويين ، وعادت الحياة الى مثل ما كانت عليه فى الجاهلية .

ثم ظهرت الزندقة ، وتجاهر اليهود بطرق شتى وبوسائل مختلفة لكيد الاسلام ، وكذلك فعل النصارى . وقالت الرواية : « ومضى أناس فى آل جبل وآل رفاعة يجاهرون بما كانوا يضمرون » ..

على أى حال ظلت الحياة تعانى ظلم الأقوياء حتى جاء العصر الحديث وظهر انكار الدين وانكار وجود الله ، وهذا ما عناه الفصل الذى خصص لعرفة .

عــــرفــة

هذا هــو الفصل الأخير من الرواية ، وبـدأه المؤلف بأن الحارة بعد ذهـاب قاسم عـادت إلى مـا كانت عليـه من قبل ، ظهـر فيها الفتـوات الجبابرة المتسلطون ، وفرضوا على الناس الاتـاوات ، وعاد ناظر جديد على الوقف من نسـل النـاظر السابق ، وقد بدأ ســيرته أولا باعتدال أو بشيء من الاعتـدال ، ثم ما لت بـه اطماعـه وأغراه جبروتـه فطغى وتجبر واتخذ من الفتـوات اعوانـا له أو أسلحـة يشهرهـا على رؤوس الضعفـاء ، ولم يبق شيء من آثـار الاصـلاح الـذى أقـامـه قـاسم ، والشعراء فى المقـاهى يتحدثون عن آمال ادهم فى المسـاواة وعمن تلاه من جبل ورفاعـة وقاسم ، ولكنها مجرد اقـوال للتسلية . ولا يستطيع واحد من الضعفاء أن يطالب بإعـادة شيء منها ، حتى اننا نجد رجلا شيخا اخنت عليه الايام ، يشرب مـرة حتى يسكر فيهذى بما لا يعرف ولا يدرى ، فوقف وهو تحت خمار ما يشرب « يطالب بأعلى صوته أن تعود الحياة الى ما كانت عليـه ايام قاسم » لكن « الفتوة الكبير » انهال عليه ضربا وصفعا ولم يتركه حتى اغمى عليه » .

هذا لون من تسلط الفتوات . امـا عن فقر الحارة وسوء حال الناس

فنجـد صـورة منهـا فى هذا الـرجل المسكين نفسـه ، يضع امـامـه فى الشارع قفصا يغطيه بثـوب قديم رث ، ويجعله « الطبلية » التى يضع عليها أكواب الشاى والقهوة ، ويبيع الكوبة بملليمين «نكلة» وتساعده ابنة له فى ريعان شبابها ولكن سمات الفاقـة بادية عليها من ملابسها ومن عين لها موجعة متورمة لا تجد ثمن الدواء الذى يصحها .

وصورة أخرى مما آلت إليه الحارة يصوره فى قوله :

« ان الناظر يستأثر بنصف الريع ـــ ريع الوقف ـ ويوزع النصف الآخر على الفتـوات الاربعة الـذين استأثروا بـه من دون المستحـقين ولم يقفـوا عند ذلك بـل جاوزوه بكل وقـاحـة الى فرض الأتـاوات علي اتباعهم المساكين ، وتعطلت حركة الانشـاء حتى توقف البناء فى بيوت لم يشيد منها الا نصفها وربعها » .

وهذا تصوير لحال الناس حين يـذهب المصلحون وتندثر مبادئهم ولا يبقى منها الا ذكريـات ، ثم هو تصوير ايضا لعـاقبة الظلم وآثارة السيئـة على الناس ، ولعل المؤلف يشير الى حـركـة التأميم وتخفيض ايجارات البيـوت فى العهد النـاصرى ، وإذ كان من آثـارها أن تـوقف البناء ، وظل متـوقفا من بعـد ، والروايـة نشرت فى جريـدة الاهرام فى اوائل الستينات . وهى ايام التأميم ، وقد نشأ عن هذه الحركة انقلاب لموازين الحيـاة وانتكست الحضارة . ويقـول المؤلف فى وصف حـال الناس :

« أما أهل الحارة فـانقلبوا إلى ما كانـوا عليه فى الزمان الأسـود بلا كرامـة ولا سيادة تنهكهم الفاقـة ، وتتهدهم النبـابيت ، وتنهال عليهم الصفعـات ، وانتشرت القـذارة والـذباب والقمل ، وكثـر المتسـولـون والمشعوذون وذوو العاهات ، ولم يعـد جبل ورفاعة وقاسم الا اسماء واغانى ينشدها شعراء المقاهـى المسطولون والناس هنا وهناك تفلت من شفاههم كلمات اليأس والاستسلام» .

فى هذا الجو ظهر عرفة .

وعرفة من ابنـاء الحى القدامى تغرّب زمنا طويـلا مع أمه ثم عاد الى الحارة وأمه كانت غجـرية ضاربة ودع ، وهـو مجهول الأب ـ ابن حرام ـ وفد على الحارة ومعـه قزم تابع له ، وكان الفقـر باديا عليه لا يكسوه الا جلبـاب واحد وقد شـد على وسطه حزامـا ليحمل فى وسطه اشياء له .. وحذاؤه بـال متهتك وليس على رأسه غطاء . وشعره اشعث غزير . واستغـربه الناس أولا ، ثم عرفهـم بأمه فتذكروهـا اذ كان هو طفلا يتبعهـا ، واخيرا أرشدوه الى بدروم فى حى رفـاعة كـانت تسكنه امراة ماتت محروقـة فتشاءم الناس منه وخافـوه ، ولكنه قبله وسكن فيه ، وسرعان ما انتشر نبأ عودته .

كان عـرفه سـاحرا وصـاحب مخدرات ، ومحترفا للطب وصنـاعة الدواء ووجد البـدروم مناسبا وأوسع مما كـان يتوقع ، وخصص منه حجرة للمقابـلات وأخرى للنوم وجعل الثالثة معملا يعـد فيه أشياء ه التى يريدها ، وصورت الرواية هذه الحجرة والادوات التى يعمل بها :

« كان عـرفة وحنش يعمـلان بهمة فى حجرة البـدروم الخلفية على ضـوء مصباح غـازى مثبت فى الجدار لم تكن الحجرة تصلح للحيـاة العاديـة ، فجعل عرفـة منها مقرا لعملـه ، وبدت على أرضهـا وأركانها مجمـوعـات من أوراق الأحجبـة والأتربـة والجير ونبـاتـات وتـوابل وحيوانـات وحشرات مجففة كـالفيران والضفادع والعقـارب ، واكوام من قطع الزجاج وقوارير وميـاه فى صفائح وسوائل غريبة ذات رائحة نفـاذة وفحم وكانـون وقـد ركبت على الجدران رفوف حمّلت بأنـواع شتى من الأوعية والآنية والأكياس ..

هذه هى الحجرة أو هذا هو المعمل . وهذه الادوات عجيبة ، منها ما هو من أعمال السحرة الدجالين ، ومنهـا ما يناسب العلماء الباحثين ، لكن عـرفـة كـان متفائلا بها يـرجـو من ورائهـا المال الكثير ويقـول

لصـاحبـه « حنش » : «لا تيأس فـالنقـود تكثـر بـالصبر . ويقــول لصاحبه : لا تخرجني عن افكـارى ، اى مغفل ممن يحسبون انفسهم معلمين فى هـذه الحارة لا يستطيع ان يـدرك خطـورة الاشيـاء التى تصنع فى هـذه الحجـرة المعتمـة القـذرة ذات الـروائح الغـريبـة . إن أعـاجيب لا يحيط بها الخيـال يمكـن ان تخرج من هـذه الحجـرة . المجانين لا يدركون قيمة عرفة الحقيقية ، لعلهم يعرفونها يوما ما » .

هذا عرفة الفقير الأفاق ، دخل الحياة من باب ضيق ولكنه نال منها ما يريـد ، عامل النـاس معـاملة عجيبة ، استـولى على الفتوة بقـرص أو حبة من المخـدر ، فجاء الآخرون يسـألون عنها ويطلبـون مثلها ، وحجرته تجمع بين السحر والبحوث العلميـة . ماذا يريد به المؤلف أو أى شخصية يحكيها هذا الافاق النصاب .

لم يـورد المؤلف لـه اشيـاء تتعلق بأعمال السحـرة أو إحضـــار الجان ، ويبدو انـه اراد به نـزعة علميـة حديثـة تعتمد على الطـاقات الكامنة فى المخلوقـات ، وهى بحوث لا تعتمد على جاه ولا نسب ، ولهذا جعل عـرفـة مجهـول الاب ، ومـا سماه المؤلف سحـرا يعنى الأعمال العلميـة التى ظهـرت فى العصر الحديث من مثل البـارود والكهـربـاء والمفـرقعات وآلات الـدمار التى لم تكن معـروفة قبل ذلك ، ويبـدو فى عرفـة هذا الاعتزاز بعملـه والاستهانة بالمعتقـدات الدينية فهـو يقول للفتاة بـائعة الشـاى : «اين جدنا ؟ ابـوك يتحدث عن قـاسم ، وقاسم حـدث عن جـدنـا . هكـذا نسمع ولكن لا نـرى الا قـدرى وسعـد الله وعجـاج والسنطـورى ويوسـف (الفتوات) نحن فى حـاجـة الى قـوة لتخلصنا من العذاب فماذا تجدى الذكريات ؟! »

ويقول عن أعماله : السحر شىء عجيب حقـا ، لا حد لقـوته ولا يدرى أحد أين يقف ، وقد تبدو النبابيت لمن يملكه لعب أطفال .

وهـذا ما يتكـرر على السنـة الناس مـن ان العلم لا يعرف الكلمـة

الأخيرة فى أى بـاب من أبوابـه ، ولا يـدرى احد اين ينتهى ، ثم نجـده يطب لعين الفتاة المسكينة بـائعة الشاى بشىء من معلومـاته ومواده فتصحو وتصح .

وهو مفتون بحجرته وما يجرى فيها من الاعمال :

ولكنى املك الأعاجيب فى هذه الحجـرة ، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين .

ثم نجد مما لديه زجاجـة محكمة الاغلاق يريد تجربتها فى الفضاء بعيدا عن اعين الناس حتى لا يفتضح امره ، هى اذن قنبلة أو ما يقوم مقام القنبلة .

انــه العلم الحديث يطغى على عـواطف الديـانـات ، ويجيب عرفـه زوجه اذ تقـول : ربك قادر على كـل شىء بقولـه : كذلك السحـر فهو قـادر على كل شىء وعلى اشيـاء لا تحصـى ، وقـد يتمكن يـومـا من القضاء على الفتـوات انفسهم ، وتشييد المبانـى وتوفير الرزق لكـافة أولاد حارتنا ، السحر أثره لا يزول .

وتقول عنه زوجته :

«هو لا يبدو كبير الثقة بـالجبلاوى ولابما تحكى الرباب عن (جبل وعمران وقاسم) ومن المؤكد انه بـات يعطى السحر من جهده ووقته اضعاف اضعاف مـا يتطلبه الرزق ، واذا فكر جـاوز تفكيره شخصه واسرته الى مسائل عامة لا يعنى بها احد» .

وهـو يقـول ايضـا : اعمال الجبـلاوى فى الخلاء لا يفسرهـا الا السحر .

وهو ايضا لا يؤمن من بـالغيب « حجرتى الخلفية علمتنى ألا أومن بشىء إلا إذا رأيته بعينى وجربته بيدى .. »

وهذه هى لغة العلم الحديث .

قـد رأينا من قبل ان المؤلف رمـز لشجـرة المعرفـة التى نهى الله ـ تعـالى ـــ آدم ان يأكل منها بـوصيـة محفـوظة فى حجـرة الجبـلاوى الخاصة ، وعنـد ما حاول ادهم ان يطلـع عليها طرد من الجنـة ، وهنا يجعل عرفة مشوقا الى الاطلاع عليهـا ، فالرمزية اذن تعنى كلف العلم الحديث بمعرفة المجهول والاستزادة من المعرفة ، ولا يكتفى المولعون بـا لمعـرفـة ولا يقنعهم ان يعيشـوا عيشـة رغـدة هنيئـة ، فـالطعـام والحيـوانـات العجم يكفيهم هـذا ، أمـا ذوو العقـول والتفكير فـلا يرضون بهذه الحياة ويعنيهم اصـلاح الناس وكشف المجهول فى هذه الـدنيا . « كـان بـوسـع جبل ان يبقى فى وظيفته عنـد النـاظر ، وكـان بوسـع رفاعة ان يصير نجـار الحارة الأول ، وكان فى وسـع قـاسـم ان يهنأ بقمـر وامـلاكهـا وان يعيش عيشـة الاعيـان ، ولكنهم اختـاروا الطريق الاخر .. »

وقد تنـاسى المؤلف هنا تكليـف الجبلاوى إياهـم بما عملوا ، وفى هذا ايضـا تناسى الـوحى الى موسـى وعيسى ومحمد .. هكـذا تقول الرباب وسوف اعرف حقيقة كل شىء .

ويقول صاحب عرفة :

« فى هـذا الخلاء كلّم (الجبلاوى) بنفسـه جبل وأرسل خادمـة الى قاسـم » .

كان عرفة يقف فى مكاننا (عند السور الخلفى بالبيت الكبير) عندما ترامى اليه صوت الجبلاوى .

وهذا تصوير تقريبى لتلقى هؤلاء الانبياء وحى الله دون ان يروه

والعلم الحديث شديـد الثقة بنفسـه ، مستهين با لمشاعـر والاوامر الدينية ، وتبدو الاستهانة فى قول عرفه :

« وفى هذا المكان قتل رفـاعة . واغتصبت أمنا وضربت ، ولم يحرك جدنا ساكنا » . وانظر قول رفاعة :

« أنا عنـدى ما ليس عنـد احد ، ولا عنـد الجبلاوى نفســه ، عندى السـحر وهو مــا يستطيع ان يحقق لحارتنا ما عجز عنــه جبل ورفاعة وقاسـم مجتمعين » .

« السـحر لا نهـاية له ليس لـدىّ الآن منه الا بعـض الادوية .. أما ما يمكن ان يوجد فلا يحيط به خيال » .

وهذا هو ما قلنــاه من قبل من ان السـحر هو العلم الحديث الذى لا تعرف له نهاية والذى يستهين بمشاعر الدين .

تستمر الـرواية فتذكر ان نــاظر الوقف فى الحارة بعـد قتل الفتوة الذى كان يستند اليه ويتقوى به ـ وكــان قتله بسـحر عرفة ـ استدنى عرفــه منه وأسكنــه فى البيت الذى كان بــه الفتوة ، واستراح عـرفه الى نعيم الحياة فى هــذا المنزل الجديد عليه ، وانغمس مع النــاظر فى الوان الترف وفى الحفــلات الساهــرة الراقصــة مع الفــواتن العاريــات ، وفى الوان الشراب والسكــر والعربـدة ، وانحرف هــو ايضا وجـرفه تيــار الفسـاد فغـوى وعشق حتى ان زوجته الفقيرة بنت بــائع الشاى أنفت من العيش معه فتركتــه وذهبت الى بيت امرأة عجـوز كانت تعـرفها ، وآثرت عيشـة الفاقة والمسكنة على هذه العيشـة الملوثة وإن غمرها نعيم المتاع .

• وناظر القصر رجل ماكر خبيث مــازال يألف عرفه ويستدنيه حتى حصل من عنده على كميــة من الزجاج السحــرى ، واقام عليه حــرسا يرقب حركاتــه ، وكان عرفه فى احاديثه مع النــاظر يتحدث عن الوقف وعن المحرومين منه من اهل الحارة والنــاظر يضيق بهذا الكلام . وكل منهما بيت أمـرا ، أمــا النــاظـر فكان يخشــى عرفــه وسحــره وقــرر التخلص منه مكتفيا بما حصل عليه من زجاجات السـحر ، فهى تغنيه من الفتوات وحسبه ذلك .

وامــا عرفــه فقــد يئس من تــوزيع الوقــف بالانصــاف ، ورأى ان

الافضل له ان يهاجر ، وكانت زوجته وتابعه «حنش» يلحان عليه فى الهرب ، ولكنه كان يرى ان عليه رسالة لابد ان يتمها وهى انصاف ابناء الحارة ، ولكنه رأى اخيرا ان يخرج منها ليعد عدته ويهيىء نفسه للعودة الى الحارة ليخلصها مما يريد ان يخلصها منه .

وفى إحدى الليالى المظلمة جاءته خادمة الجبلاوى — تلك العجوز السوداء التى رآها ليلة ان اقتحم القصر — جاءت اليه لتخبره ان الجبلاوى وهو يعانى الاحتضار بين يديها امرها ان تبلغه أنه راض عنه ، قالت : قال لى : « اذهبى الى عرفه الساحر وأبلغيه عنى ان جده مات وهو راض عنه »

واستغرب عرفه هذا النبأ لكن العجوز اكدت له ذلك ، ففرح به كل الفرح وشد ذلك من عزمه على الهرب ، ولم يصدقه رفيقه اول الامر وحسب ذلك من خيالات السكر ، ولكن ازاء التاكيدات الكثيرة الشديدة اذعن .

كان عرفة وصاحبه وزوجه يودون الهرب ولكنهم يخشون عيون الناظرين من حولهم ، وظل عرفه وحنش رفيقه مجدين فى العمل فى الحجرة التى خصصاها لذلك وفى العمل الذى جهزاه .

ورأى عرفه ان يدون اسرار سحره ورموزه فى كراسة ليرجعا اليها عندما تدعو الحال لذلك .

وأخيرا استحكمت فى ذهنه فكرة الفرار فإنه من الصعب والمستحيل إن يؤدى رسالة فى هذا الجو ، عيون الناظر تراقبه فى كل مكان : ولكن كيف الهرب فى مثل هذا الجو الرهيب ؟!!

تربص هو ورفيقه حتى القى الليل على الكون حجابا كثيفا من الظلام القاتم ، وتوقع انه اذا خرج فلن يراه احد ، وإذا رأوه فلن يضيروه بشىء لأنهم ألفوه ، وكان على نفسه من المسرفين . إن الناظر ماكر عميق التفكير وجواسيسه يخبرونه بكل شىء . لقد حدث عرفه

من قبل أنه يعرف تسلله إلى داخل البيت الكبير وقتل الخادم الذى بسببه مات الجبلاوى كمدا ، كما أنه يعرف أنه قاتل الفتوة الذى كان عينا ، وبدا للناظر والافلات منه حتى تحت ستار الظلام ليس بهين .

واحتال عرفه جهده وخرج هو ورفيقه فى صمت تام واتجها نحو بيت العجوز التى هربت عندها زوجته ولكنه لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان . دخل وترك صاحبه خارج البيت لينذره بخطر الحراس ـ حراس الناظر ـ اذا اتوا .

وصعد الى زوجته فى غرفة العجوز المسكينة على السطح وأخذ يعتذر اليها ويستحثها على الهرب معه ، ولكنه فوجىء بإنذار صاحبه ونظر فإذا الشارع ملىء بالحراس جاءوا ليطاردوه ثم ليردوه الى الناظر وكانت معه كراسته التى دون فيها اسرار سحره ، فرمى بها بسرعة فى « منور» البيت حرصا عليها ان يأخذها الحراس ويكشفوا أسراره .

لم يستطع الهرب من مطارديه الكثيرين فأمسكوا به هو وزوجته وقيدوا أيديهما إلى ظهورهما واستقوهما إلى الناظر . اما رفيقه حنش فقد أفلت : انهال الناظر عليهما ضربا وتأنيبا ، ثم نادى رجاله ثم امر بوضع الزوجه فى شوال احكم فمه اغلاقا .

وقال عرفه للناظر : ان صاحبه لديه أسرار السحر ، وأنه عما قريب سينتقم منه ومن اعوانه ، وسخر الناظر من هذا التهديد وقال : « عندى من القوارير ما يحمينا الى الابد »

ووضع عرفه ـ فى شوال ايضا ، وذهب الحراس به وزوجته الى الخلاء فحفروا لهما حفرة القوهما فيها ، وهالوا عليهما التراب .

شاع الخبر فى الحارة ان عرفه قد قتل ولكن لم يعرف الناس كيف قتل ، وان كانت الاشاعة قد زادت بأن الناظر تخلص منه .

شمت فى عـرفـه الكثيرون وسبـه الكثيرون وقـال القـائلـون إنـه اساءهم بقتلـه الجبلاوى واعطائه النـاظر سـلاحا فتاكـا من السحر الذى عمله .

ظهـر « حنش» بعد ذلـك للمرأة العجـوز وسألها عما تـرك عرفـه فقـالت : انه رمى كـراسـة فى المنـور ، وراح يبحث عنها فلم يجدهـا ، فذهب يسأل حـاملى الزبالة ايـن القوا زبالة هـذا المنور ، ثم ذهب الى مستوقد الصالحية يبحث بين الزبالات .

وارتاع النـاظر واخذ يبحـث عنـه ووعد بمكافأة سخية لمن يـرشد عنه ، وكان الحراس ذهبوا الى اكوام الزبالات ليقبضوا عليه فلم يجدوه هناك فقد اختفى إذن والكراسة معه .

وتناقل النـاس هذا النبأ وقـالوا : ان « حنش» سيعـود مرة ثـانية ليقتل الناظـر ويعيد سيرة عـرفة ، ولكراهتهم فى النـاظر تـواصوا أن يعاونـوا « حنش» اذا عادوا ونمت العاطفـة حتى كانوا يبكون عـرفه ، وفاضت السنتهم بـالثناء عليه ، وقـالوا اضعناه ولم ننصره ، وقـالوا كان رجـل الحارة الاول والاخير حتى ولو كـان هو قاتـل الجبلاوى .. وقال بعضـهم قد يعود « حنش» بسحر رفاعة .

ثم لـوحظ اختفاء بعض الشبـان تبـاعا وقيل فى تفسير اختفـائهم انهم اهتـدوا الى مكـان خنش فـانضموا اليـه ، وأنـه يعلمهم السحـر استعـدادا ليـوم الخلاص الموعـود ، واستحـوذ الخوف على النـاظـر ورجـاله ، فبثـوا العيون فى الاركـان ، وفتشوا المسـاكن والدكـاكين .. حتى بـاتت الحارة فى جـو قاتم من الخوف والحقـد والارهـاب ، لكن الناس تحملوا البغـى فى جلد ولاذوا واستمسكوا بالأمل .. وقـالوا لابد للظلم من آخـر ، والليل من نهار ولنـرين فى حـارتنا مصرع الطغيـان ومشرق النور والعجائب .

بهذا انتهت روايـة « اولاد حـارتنـا » ـــ وهى فى جملتهـا ومختلف

مـواقفها تمثل المعـركـة الابـدية الـدائرة بين الخير والشر ، بين الظلم والعدالة . تصـور بغى الاقوياء على المستضعفين . الاقـوياء يتمتعون ويلهون فى اسراف وبذخ ، والضعاف الفقراء يلهثون وراء لقمة العيش ووسائل الاعلام التى تتمثل فى اناشيد الرباب يعنيها قبل كل شىء ان تتملق الحكـام وتثنى على الاقـويـاء ، فـإذا أرادت اطـراب النـاس وتسليتهم ذكـرتهم بأمجاد المصلحين السابقين ، وليست ذكـرياتهم وامجادهم الا خيالات واحاديث لهو على نحو مـا يتغنى شعراء الرباب فى الريف ببطولات بنى هلال .

ويلاحظ ان المؤلف جعل كل واحد من هـؤلاء الثلاثة يأتى والحارة تعج بصور من الفسـاد والظلم والتعالى من الاقوياء ينـال الضعفاء ، وبسبب استبـداد الحكـام فى كل موقف ، وخـوف النـاس منهم يشيع النفـاق وتكثر المداهنـة والـرياء ، فـالنـاس يكرهـون نـاظر الـوقف ويكـرهـون الفتـوات ، ولكنهم يـداهنـونهم ، والشعـراء يتحـدثـون بمآثرهم ويبدأون حديثهم بالثناء على الناظر ثم على فتوته .

وهـذا مستساغ لأنـه حين يشتد الظلم يظهـر المصلحون والنـاس دائما يقولون : **اشتدى ازمة تنفرجى** .

ودعـاة الإصـلاح دائما يعنيهم صـلاح أممهـم ولا ينظـرون الى مصـالحهم الخاصة بقـدر مـا يعملون لصـالح الآخـرين وهم دائما يعادون من الحكام ويختلف النـاس فى شأنهم بين مادح وقادح وتقدَّر مبادئهم من قوم وتنكـر من آخرين ، وبعد ذهابهم تنـدثر مبادئهم او تحور ويختلف الاتباع فى مغزاها وتفسيرهـا ، ولكن با لمزيد من طغيان الظلم يتـذكر النـاس هؤلاء المصلحين ويبكون ايـامهم . وقـد حرص المؤلف على ابراز هذه الناحية فى حياة المصلحين الذين ذكرهم .

تعقيب

(١) روايةأولاد حارتنا نشرت فى جريدة الأهرام فى أوائل سنة ١٩٦٠ ، ثم أخرجت فى مجلد فصودرت ، صادرها الأزهر ، ويرى صاحب الرواية الأستاذ نجيب محفوظ : أن المباحث العامة هى التى قدمتها للأزهر وطلبت أن يصادرها ، هذا لأن الأزهريين — فيما يذكر ويرى الأستاذ نجيب محفوظ — لا يقرأون هذا اللون من الأدب القصصى ، وأذكر أننى حاورته فى هذا فأصر على ما يرى ، ومهما يكن من أمر مصادرتها فقد نشرت ، نشرتها إحدى صحف اليسار ، ومن قبل نشرها فى الصحف المصرية طبعت فى بيروت وتسربت إلى مصر وبيعت بثمن غال ، وقرأها من يعنيهم أن يقرأوها ، وشاعت بين الناس إلى حد غير قليل وهذا ما شجعنى على الكتابة عنها .

(٢) كتابتى عن هذه الرواية هى حل لرموزها ، ومقابلة بين ما جاء فيها وما جاء عن أحداثها فى كتب التاريخ والأديان ، ومما سبق نجد أن موضوع الرواية كلها يتركز على رسالات الأنبياء الكبار ، وهى فى عرض حوادثها تحتذى سيرهم وجهادهم ومواقفهم بين الناس وأمام الحكام ، وقد خفت صوت هذه الرسالات ونسى الناس أو

أعرضوا عن هـذه الدعوات أمام التقـدم العلمى الحديث حتى أعرضوا عن الله نفســه ، وهذا مـا عبر عنه المؤلف بمـوت الجبلاوى ، ولم يمت العلم ويصبح أحـاديث وروايـات كما حـدث للـرسـالات ، بل بقى فى الكـراسـة التى تحوى أسرار السحر ورمـوزه ، وقـد حصل عليهـا .. «حنش» تـابع عرفـة ممـا جعل الناظـر فى رعب وتـوقع لسطوة عليـه وهجوم جديد ، وقد فسرت بعض الرموز فى الرواية كما بدت لى ، ويوم أن قـابلت الاستاذ نجيب وحـادثته فى شأن هـذه الروايـة لم أكن على تذكـر جيد لأحداثها ، فهى لم تكن عنـدى ، وكل ما كان لدى منهـا هو بقايا ممـا كنت أقرأه منها حين كانت تنشر فى جريـدة الأهرام ، وهناك أحداث كثيرة أضافهـا وليس لها نظير فى الكتب القديمة ، ولم تحضر فى حوارنـا ، ولكن بدا لى منها أنه يـريد تأكيد الصورة المصريـة بإدخال هذه الأحداث ، وهى أخلاق شعبية مصرية .

(٣) قلنـــا من قبل أن الــروايــة صـــودرت . فما الـذى دعـــا إلى مصادرتها ؟ وما الذى أثار الغضبة منها ؟

أول شىء هو شخصية الجبلاوى ، فقـد خلع عليها المؤلف صفات الذات العليـة ، وهذا ظاهـر جدا من حـادث تولية أدهم نظـارة الوقف وأمر الآخرين بطاعته فأذعنوا وأطـاعوا عدا إدريس الذى يمثل موقف ابليس ، فهذا ما تقوله الآية الكـريمة : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكـان من الكـافرين » وهـذا الإبـاء مذكور فى غير سورة من القرآن .

وهو ظاهـر أيضا فى احتجاب الجبلاوى فى قصره ولا يـراه أحد ولا يكلم أحدا ، ثم نجد فى أثنـاء الرواية ما يؤيد هـذا التشبيه كل مظلوم ، وكل ضـــائق من شىء يصيح .. يـا «جبـــلاوى» ـــ والمظلـــومـــون والضـــائقــون عــادة يصيحـــون « يارب » ـــ ثم تقــول الـروايـــة : إن الجبلاوى وهـو فى حجرته يعلـم كل شىء فى الحارة ، ونحن نقول : لا يعلم الغيب إلا الله ، كذلك نجـده يخاطب « جبل » و « رفاعة » وهما لا

بريانـه ، أما قاسم فظهر لـه وكلمه « قنديل » .. وهو يقـابل شخصية جبريل . وجاء فى القرآن الكريم عن مـوسى حين سار بأهله وآنس من جانب الطـور نارا فلما آتاهـا « نودى يا مـوسى إنى أنا ربك » ــ « يا موسى إنى أنـا الله رب العالمين » ــ « إننى أنا الله لا إله إلا أنـا » ـ إلى آيـات أخرى مثل هـذه الآيـات ، والروايـة تـذكر أن « جبل » وهـو فى الظلام القاتم فى الصحراء سمع هـذا الخطاب من الجبلاوى ولم يره ، كذلك رفـاعة سمع نداء الجبـلاوى يحرضه على الجهاد وعلى الـدعوة للاصلاح وإشـاعة الرحمة والاخاء ، وجاء فى القـرآن الكريم : « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكـر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس» ، «يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذى كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ... »

وهكـذا كما أوحى اللـه إلى أنبيـائه ولم يـــروه سمع هـؤلاء كـلام الجبلاوى ولم يروه .

وحين جـاء عهد العلم الحديث ــ عهـد السحر فى الـروايـة ـ نجـد عبارات كثيرة ضد الجبلاوى كما نجد عنـد العلمانيين انكار الله : ماذا فعل لنا الجبـلاوى ، هل رآه أحد ، لم يره جبل ولم يره رفـاعة . وهكذا نجد الجبلاوى شخصية تلبس صفات الذات العلية .

(٤) قال الأستـاذ نجيب : إنه لا يتحدث عـن الله ـ تعـالى ـ ولا عن الكون ، وإنما يصف حارة شعبية ، بها رجل مقتدر له فى الحارة وقف وله نظار ، وقد جاء فى أول الرواية : إن الرجل كبر ويريد أحد أبنائه أن يتولى هذه النظارة !

هذا كلامه .

ولكن أى رجل يعمـر كـل هـذه السنين ! ! تـوالى على الحارة نظـار وفتوات ومصلحـون ، وهو حى لم يمت إلا بعد مئـات السنين ، ثم هو

حتى بعد موته لم يره أحد ، دفن فى حديقة قصره ، من يا ترى تولى تجهيزه وغسله وتكفينه ؟ ! !

(٥) والمصلحون الذين ذكرتهم الرواية ، خلعت على كل واحد منهم صفات وأعمال النبى الذى يمثله ، فجبل قام بأعمال كأعمال موسى ، ورفاعة لبس صفات المسيح ، كان نجارا واعتكف فى الخلاء وفوق الجبل ودعا إلى ما دعا إليه المسيح عليه السلام ـ من الرحمة والإخاء ، وقاسم مثل سيرة النبى محمد ـ ﷺ ـ يتيم رعى الغنم وتزوج من سيدة شريفة ثرية ، وحارب ، وتزوج عددا من النسوة ثم نجد الرواية تذكر خلافة الصديق واختلاف الصحابة ودعوة بعضهم لتولية على ونصرته ... الخ

أتتسع الحارة لهذا كله ؟ وتأتى المصادفة بكل هذا التوافق ؟

(٦) من ناحية أخرى نجد صفات وأحداثا لا تتناسب هذه الشخصيات .فالجبلاوى يخرج من القصر أحيانا ، وقد استدعى «همام» وخرج ليأتى به إلى القصر .

هل هذا رمز للرضا عنه ؟ إن الرضا جاء صريحا فلا حاجة إلى الرمز ، كذلك هؤلاء الأنبياء جاء لكل واحد منهم صفات وأعمال تخالف المأثور عنه ، فموسى ـ كما رأينا ـ لم يلق فى اليم ، ولم يقابل السحرة أو يتحداهم .... ورفاعة له أب نجار ، وقاسم شريب سكير ، بل ثلاثتهم يشربون .

ترى هل تغير هذه الصفات شيئا من شخصيات اتسمت بكل ما لهم من أعمال وصفات ، حتى أمانة قاسم واعطاؤه النساء حقوقهن وإكبار الناس صفاته النبيلة .

هذه الصفات البارزة من أعمال هؤلاء الأنبياء لا يخفيها ما جاء لهم من صفات شعبية .

(٧) هذه انطباعاتنا عن هـذه الرواية الكبيرة الضخمة ، وهى مليئة بالصور والمناظر الشعبيـة ، ولا مغزى لها إلا أنها تصور شعبا فقيرا يمتهن المهن الحقيرة ، وجبابـرة أقويـاء يستهينون به ويسخـرونه لما يـريدون وينهبـون أملاكـه وأمـواله ، والشعب يصبـو لإصلاحـات المصلحين ولكنها لا تـدوم ولا تلبث إلا قليلا ، وتحت ضغط المعـادين للمصلحين وجبروتهم يضطر الناس إلى شتم المصلحين الـذين جاءوا لإنقاذهم .

هذه الصورة ليست مجرد صورة شعبيـة ولكنها تمثل حال مصر فى مختلف العصور ، بل وحال الناس فى أمكنة وظروف شتى مختلفة .

(٨) وسلاح العلم الحديث يقوده غـرور لا يحد ، إنه يخيل إليه أنه يعمل المستحيل ، أو يستطيع أن يعمله ، ويتمثل هـذا فى الرواية فى أمل عرفة أنه سيصل يومـا إلى إحياء الموتى ، ولكن الله سبحانه راض عن العلم وعن العلماء ، ويشير إلى هـذا خـادمة الجيـلاوى العجـوز التى جاءت إلى عرفة لتخبره أن الجبلاوى مات وهو راض عنه .

(٩) تـرى صادفت التـأويلات التى سبقت مـراد الكـاتب ، أم هى مجرد تخمينـات ، وددت لـو أن لدى طـاقـة من الجهـد ومتسعـا من الوقت لأقابل الأستاذ نجيب وأعـرض عليه هذه الملاحظات ، وأذكر أن الحسن بن هـانىء الشاعـر المشهور بكتبـه « أبو نواس » مـر بمعلم يشرح لتلاميذه قول ابى نواس :

ألا فاسقنىَ خمرا وقل لى هى الخمر .

فقال المعلم : إن الشاعـر أراد أن يمتع حواسه كلها بـالخمر ، وهو قد ذاقها وشمها ورآها فأراد أن يمتع سمعـه بذكر اسمها ، فتبسم أبو نواس وقال : ما خطر هذا لى ببال . ! !

ولعلى لا أكون قـولت الكاتب مـا لم يقل وأردت له ما لم يخطـر له ببال .

(١٠) وأخيرا يأتى السؤال الواضح القريب : هل يجوز إذا غيرنا أسماء بعض الأشخاص والأماكن أن نعرض سيرهم وأعمالهم حسبما نرى ؟ هل يجوز إذا سمينا الأنبياء الكبار بجبل ورفاعة وقاسم وسمينا الله باسم الجبلاوى أن نعرضهم هذا العرض ، وهو كما رأينا من قبل لا يخلو من سخرية أو إهانة .

للإجابة على هذا السؤال أقدم سؤالا آخر ، ماذا يحدث لو سميت ملكة انجلترا بغير اسمها ، ووصفتها ووصفت زواج ابنها ولى العهد أو أباها بصفات لا تناسبهم ؟ أيرضى الانجليز عن هذا أم يغضبون ؟ وهل تقبل الملكة اليزابيث الثانية أن أسميها موهانا أو باميلا أو مارجريت أو غير ذلك من الأسماء ثم أعرض صور تقلدها العرش بعد أبيها وزيارتها فرنسا حين كان بها عمها وزيارتها له ، وشربهما وسكرهما أو عملهما عملا لا يناسب كرامة ملكة انجلترا ؟ وماذا يحدث لو أننا فعلنا ذلك لأى ملك أو رئيس جمهورية أو حتى محافظ إقليم ؟

هذا ما يقوله الذين طلبوا مصادرة الرواية .

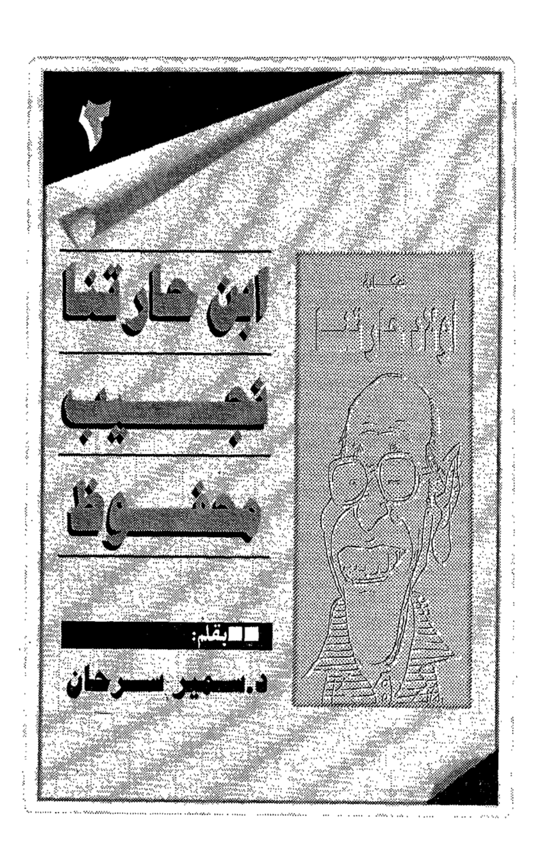
ويعرض الآن فيلم المهاجر ، وقصته تمثل شخصية يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وقد احتج عليها الكثيرون ، ولها الآن قضية تنظرها محكمة رسمية ، ولا ندرى ماذا سيكون قرارها .

ويقال إن رواية « أولاد حارتنا » بصدد أن تكون مسرحية تعرض فى التليفزيون ، وحول هذا أكد نجيب محفوظ أنه لم يصرح بذلك .

وقد نشرت جريدة الأهرام فى يوم ٥/ ١١/ ١٩٩٤ حديثا عن الرواية وعن مؤلفها ، وجاء فيه أنه مازال على رأيه الذى أعلنه عقب فوزه بجائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، وهو عدم النشر إلا بعد موافقة «الأزهر» أو عدم اعتراضه وهو ملتزم مع « الأهرام » على تولى نشر الرواية .

وفى الصفحة نفسها خبر يقول : إن المثقفين المصريين أصدروا بيانا وقعــة أكثـر من ٥٠٠ من الكتــاب والمثقفين والمفكـرين والفنــانين والاعلاميين ، ويقع فى ١٧ صفحـة ، وقد استنكـروا فيه نشر الـرواية دون إذنٍ منــه بذلك وضــد رغبته ، لأن هــذا النشر عدوان صــارخ على حق المؤلف .. ورحب الأديب الكبير ببيــان المثقفين المصريين ، وأبـدى استياءه من نشر الرواية ، وأكد أن النشر تم بدون موافقة منه .

وخلاصة ذلك كله أنه لم يــأذن بنشر الرواية وأن هذا النشر يتوقف على الموافقة الأزهر أو عدم اعتراضـه .



٣
ابن حارتنا
نجيب
محفوظ
بقلم:
د. سمير سرحان

تلك المدية التى غرسها أحد المجرمين فى رقبة نجيب محفوظ فأسال منه الدماء الغزيرة إنما غرسها فى قلب الوطن . ويشاء الله العلى القدير أن يجرح هذا القلب الكبير ولا يتوقف .. وإنما يعود لينبض بالحياة ، ويعود صاحبه ليطلق الضحكات رغم المفاجأة ورغم الألم .. وكأن هذا الحدث الجلل قد عبر أبلغ تعبير عن استمرارية هذا الوطن بحضارته العريقة وبوعيه المتفتح نحو العقلانية والتقدم والحرية ، بالرغم من أفاعى الظلام التى تنفث سمها خسيسا حقيرا لتلدغه لدغة الخيانة حتى تدمر كل ما هو جميل وحقيقى فى حياتنا .. ثم تطلق سيقانها للريح !

ليس نجيب **محفوظ مجرد** روائى كبير استطاع فى خلال عمله الدءوب على مدى خمسين عاما أن يرسم بريشة إبداعه العظيم خريطة هائلة للمجتمع المصرى المعاصر فى مراحل تطوره الاجتماعى المختلفة ، وبنماذجه البشرية الفريدة ، وبالحارة المصرية التى تمثل عنده مصغرا للعالم ، وبالصراعات والتناقضات الفكرية والنفسية والسياسية والوجودية التى اكتنفت مسيرة هذا المجتمع على مدى جيلين ، فاستحق بذلك أن يتربع على عرش الرواية العربية ، وأن يخرج بها من خلال خصوصيتها الثقافية ومحليتها الشديدة إلى

نطاق العالمية ، فيحصل بها للأدب العربى ـ لا لنفسه فقط ـ على جائزة نوبل ، ويضع هذا الأدب على خريطة الإسهام الإنسانى والإبداع الراقى المتكامل بعد أن كانت الرواية العربية ـ فى نظر بعض المستشرقين ـ مجرد وثائق اجتماعية تزود الباحث الغربى بمعلومات عن العادات والتقاليد الغريبة للمجتمع الشرقى !

لا .. وليس نجيب محفوظ مجرد مبدع استطاع أن ينقل فن الرواية العربية من مرحلة المقامات أو الحكاية أو الحدوتة أو الثرثرة الرومانسية ، إلى مرحلة البناء الروائى المحكم والمتكامل الأركان سواء فى مجال الرواية الاجتماعية التى ترصد حركة المجتمع من خلال مصغر المكان (وغالبا ما يكون هذا المكان حارة أو حيا شعبيا مثل الحسين أو الجمالية) ، أو فى مجال الرواية التى يختلط فيها الواقع بالرمز ويصبح البطل فيها هو العالم الداخلى للشخصية بكل نوازعها الداخلية المتناقضة ومحاولتها الاتحاد بعناصر الكون الأكثر شمولا وشفافية من الواقع المعاش .

وليس نجيب محفوظ مجرد قيمة عليا من قيم العمل الدءوب المخلص من أجل أن يرسى قواعد فن من الفنون الجميلة هو فن الرواية ، ومن أجل أن يرسخ جذور هذا الفن القادم من الغرب فى تربة الأدب العربى الذى يعتبر الشعر هو عموده الأول ، وهو الأدب الذى لم يعرف فن السرد الفنى إلا فى مقامات الحريرى وبعدها فى محاولات المويلحى وعمله الرائد «**عيسى بن هشام**» أو رواية «**زينب**» لمحمد حسين هيكل ، **ثم عودة الروح** لتوفيق الحكيم .. وكلها أعمال قد تقترب من فن الرواية ولكنها لا تمنحه التحقق الكامل .

وليس نجيب محفوظ بشموخه الفنى واتصال إبداعه فى الزمان ، وتواجده المتوهج على الساحة الأدبية على مدى نصف قرن مجرد أديب كبير يستحق بجدارة لقب أبى الرواية العربية ، ومؤسس

الروايـة العربية الحديثـة الذى خرج من معطفـه عشرات ، بل مئات ، الروائيين من الأجيـال التى تلت ذلك فصنعوا بـه ومعه مجد الـرواية العربية المعاصرة ، تماما كما خرج الأدب الروسى الحديث من معطف جوجول كما يقولون .

وليس **نجيب محفوظ** فقط هو ذلك الـرائد الذى سـار بالـرواية الواقعية إلى آفاق أبعد وأشمل فى تطوره الفنى على مدى سنوات إبداعه الطويل ، فهو قـد خرج من الإطار الاجتماعي الواقعى بعـد «الثلاثية» ليجـوب آفـاقـا أرحب على مستـوى التجـريب فى الشكـل الـروائى والتجريب فى الموضوع الروائى فى الوقت ذاتـه .. فمزج الواقع بالرمز واتخذ من الخلفية الاجتماعية إطارا رمزيـا للوصول إلى المعانى الكلية التى لا تقتصر على واقع اجتماعى بعينـه أو ظـروف زمانيـة بعينهـا ، فكأنه أراد بذلك أن يسـبح فى المطـلق متخـذا الواقع كنقطة انطـلاق لا ارتكاز ، فيصبح الواقع فى روايـاته الرمزية كـالقاعدة التى ينفصل عنها الصـاروخ ليسبح بعد ذلك فى الفضاء الرحب ، ويـلامس المعانى الكبرى التى تلهينـا حيـاة الأرض عـن إدراكهـا بسبب صراع الحيـاة اليومى .

لا **وليس** نجيب محفوظ مجرد شجرة وارفـة أظلت بظلها الرحيب وبحضـورهـا المتوهج بستان الأدب العـربى على مدى سنوات طـويلة من عمـر الـزمان المصرى والعـربى وستظل كـذلك مـا بقيت الكلمـة أسـاسـا لوعى الإنسـان وتقدمه وصراعه مع الحياة أو احتفاله لها .. ولا هو مجرد مـوقف مع الحرية والتقـدم والتفكير العلمى والتنويـر وكل القيم العقلانية والفكرية التى أرست دعائم تقدم المجتمع المصرى منذ عصر محمـد على حتى الآن ، وهـى قيم تـرفض العـودة بمكتسبـات الثقافة المصرية إلى الوراء ليعود المجتمع إلى عصور الظلام المملوكية ، لا عصور الصحوة الحضـارية ، بعد أن يتم إغراقـه فى متاهات الجهل

والخرافـة والشكلانيـة والـروح القبلية وتكفير الآخـرين . فـالموقف الفكرى الثابت لنجيب محفوظ ـ مهما تنوعت آراؤه السياسية أحيانا ـ هو مع التقدم والعقلانيـة والحرية وحق الخلاف فى الرأى مع التمسك بمنظومـة المثل العليا التى تحكم حيـاة الفرد وحيـاة المجتمع معا على رأسها الدين .

وهذا الموقف يتنـاقض تماما مع سوء الفهم الذى صـاحب روايته العظيمة «**أولاد حارتنا**» منذ البداية حين رفع أحد الشيوخ تقريرا إلى السلطات العليا يحرض هـذه السلطات على مصادرة الروايـة بدعوى خروجها عن الـدين عام ١٩٧٧ . ومنذ ذلك التاريـخ والرواية تقف فى قفص الاتهام دون أن يقـرأها أحـد .. ودون أن يسـعى أحـد إلى تحرى الحقيقة .. ومن المؤكـد فعلا ان أحدا لم يقـرأ الرواية لا قـراءة متعجلة ولا قراءة متأنية سوى صفوة الصفوة من النقاد أو محبى أدب نجيب محفـوظ .. وبما اننا بلـد يهوى تنـاقل الإشـاعات دون التحـرى عن مصدرهـا أو حقيقتها ، فقد سرت الإشاعـة مسرى النار فى الهشيم ان «**أولاد حارتنـا**» روايـة معاديـة للـدين ، حتى وصل الأمـر إلى ذلك الصبى الغـرير ذى العشرين ربيعـا الـذى انحنى ذات يوم على رقبـة نجيب محفـوظ فى السـاعـة الخامسـة من ذلك اليـوم الأسود ليطعنـه طعنـة نجلاء ويطعن معـه قلب الوطن دون أن يقـرأ حرفـا من «أولاد حارتنـا» ودون أن يعرف حتى إن كانت رواية أو مسرحيـة أو قصيدة شعر !

ويشاء الله ان هذه الطعنة الغادرة تكسب الكاتب العظيم قوة وتهبه فى الحيـاة استمـرارا وقـدرة ، ويشاء الله ان الصرخـة المكتـومـة التى أطلقها الكاتب وهو فى قمة الألم فى وجـه الإرهاب تصبح صرخة مدوية يتردد صـداهـا فى جنبات الـوطن .. وإذا الكل يستيقظ إلى حقيقـة مـا يجرى لهذا الوطن .. وإلى حقيقة «أولاد حارتنا» !

وها أنت وحدك

يا أيها الشاهق الفذ تخترق الظلمة الدامسة عاريا ،
ناحلا ،

لا تنوء بما حملت كتفاك

ولا تشتكى لعصاك

من الطعنات الخسيسة والأوجه الفظة العابسة بل تجود
على الطرقات بما عتق الدهر والفكر من طيبات دماك تدق
بها فوق أبوابنا المغلقات

لنصحو فى الساعة الخامسة !

(أحمد عبدالمعطى حجازى)

رواية أولاد حارتنا « أمثولة رمزية» Parable وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية التى تسببت فى سوء فهمها .. والحكم عليها لا بمقاييس الفن وإنما بمقاييس أخرى غير فنية هى مقاييس المقال أو الرأى الفلسفى أو حتى السياسى بمقياس التكفير الدينى .. والرواية ببساطة شديدة ـ كما هى الحال فى عالم نجيب محفوظ الروائى ـ تتخذ من الواقع وسيلة لتصوير ما وراء الواقع .. أى منظومة النظم والقوانين العليا التى تحكم حياة الإنسان وأهمها الخير والشر .. والصراع بينهما .

كما تتخذ أيضا شأنها شأن عدد كبير من رواياته الاجتماعية ـ من الحارة المصرية مصغرا للعالم .. وإذا كانت الحارة هى التجسيد الواقعى للعالم كما يراه نجيب محفوظ ، فإن دلالاتها تتسع لتشمل الكون كله .. وهو الكون الذى لا يقتصر إدراكه على التفاصيل الواقعية للحياة اليومية وإنما يمتد ليشتمل على منظومة القيم والمدركات الميتافيزيقية التى تحكم مصير الإنسان فى هذا العالم .

وإذا كانت الحارة هى مصغر للعـالم .. وإذا كانت مسيرة البشرية فى هـذا العالم تـوازى ــ روائيا ــ تـاريخ هـذه الحـارة وصراعـاتها وتقلبـاتها ، فإن الـدين فى « **أولاد حـارتنـا** » هـو الحقيقـة الأولى والجوهريـة التى تحكم مسيرة الحضارة الانسانيـة كما تحكم الحياة داخل هذه الحارة الرمزيـة .. وفيها يستحضر نجيب محفوظ الأشكال الأساسيـة للديـن أى اليهودية ، والمسيحيـة ، والإسلام وهـى جميعا عنـده ترمـز إلى فكـرة الـدين السماوى خصـوصا دون الحاجـة إلى الخوض فى تفاصيل كل دين على حـدة أو مقارنـة دين بآخر ، فـالذى يهمـه هنـا هـو أن يـرد فكـرة الصراع بين الخير والشر إلى منبعهـا الأساسى فى جوهر حياة البشريـة وهو القيم الدينية التى لا غنى عنها للوصول إلى حالـة من الخير الخالص ـ هو الأصل فى التكوين البشرى بل وربما الأصل فى جالة الكون ذاتـه قبل خطيئة آدم ـ فى مقابل الشر الخالص الـذى يتمثل فى الرمـز الابليسى الـذى ينطوى على عصيـان الرب ، ومنـذ أن عصى ابليس أمر ربـه بالسجود لآدم عليـه السلام ، أصبح اسمه قرينا بالشر وأصبح العـالم ذاته مكانا يختلط فيه الخير بالشر ، وهكذا أيضا الحال مع أولاد حارتنا عند نجيب محفوظ .

فالحيـاة فى هذه الحارة الـرمزيـة تنطوى على جـدلية الخير والشر التى تحكم الحيـاة ذاتها منـذ أن رفض ابليس السجـود لآدم وعصى أمر ربـه ، فكف الكون عن أن يكون خيرا خـالصا ، وانتفت عنه حـالة الطهر الخالص المصاحب لفكرة الفـردوس .. وما يعنى نجيب محفوظ فى الأساس فى معالجته الروائية لحالة الكون فى **أولاد حارتنا** هو بيان الخير والشر وإرجـاع الصراع بينهما إلى أصولـه الحضـارية بـدءا من الحالة الفطرية الأولى التى كان عليها الانسان عند بدء الخليقة وانتهاء بإنجازات العلم الحديث عبورا بدعوات الرسل والأنبياء .

هـذا هو المعنى الـرمـزى والجوهـرى فى معالجة نجبيب محفـوظ للحيـاة فى « أولاد حـارتنا » أمـا الحارة نفسهـا فهى تموج كما تموج

الحياة ذاتها بـالنماذج الانسانيـة التى تتصارع وتتعـايش من خلال فكرة « واقعيـة » هى محاولة إعادة توزيع ريع « الـوقف » الموجود فى الحـارة على سكـانها بالعـدل والقسطـــاس ، ذلك الوقـف الذى كـان « الجبلاوى » المتسلط قد حجبه عن الجميع .

ويقع الخطأ الأساسى فى التأويل المعادى للـرواية ـ والذى أدى إلى مأساة محاولة ذبح المؤلف على قارعة الطريق فى الساعة الخامسة ـ فى تفسير شخصيـة الجبـلاوى نفســه .. فهـواة هـذا التفسير الخاطىء يخلعون على الجبلاوى بعض صفات الألوهية .. لكن القارىء المتأمل للروايـة يستبعد تماما اقتراب شخصية الجبـلاوى من دائرة التأليه . فهو دائما يقسم بالله .. أى أنه ذات بشريـة يعود دائما فى حاله الأزمة أو القرار إلى القسم بـالذات العليـا .. والتأويل المعادى للـرواية والتى يتهمهـا بأنها ضـد الدين ، يـوازى عمدا بين شخصـيات « جبـل » و «رفـاعـة» و « قاسـم » وبين رسل الله فى الأديـان الثـلاثـة .. ولكن المتأمل للـــروايـة وللتركيب النفسى والشخصـى لهذه الشخصيـات الثـلاث يـدرك أن كـلا منهـم يلعب دور المصلح الاجتماعى دون أن يجاوز حد البشرية أو يتطـاول على التشبه بالأنبياء .. فجبـل يرمز إلى القوة التى بغيرهـا لا يسود العدل ، ورفـاعة يرمز إلى فضيلـة الرحمة ويروج لها بين أبنـاء الحارة ، وبين القوة والرحمة يتردد القسم بـالله الواحـد الأحد وطلب العفو منه ، أمـا قاسم فيأتى قويـا ومتسامحا فى نفس الوقت مستعينـا بالله صاحب النصر .. وعنـدما ينتصر يخاطبه صاحبـه صادق قـائلا : « نصرك الله » ، ولما خلفـه على الوقـف جعله قـاسم للجميع وأعاد تـرتيب الأوضـاع فى الحارة « بفضل الله » فـالله وحده هـو من ينعم ويرحـم ، فالثلاثـة هم من المصلحين الاجتماعيين ولكل منهم نظـرته إلى كيفيـة تحقيق العـدل فى الحارة ، وثلاثتهم بـلا استثنـــاء يتميـزون بـــالضعـف البشرى فهم يبيعـــون ويشترون وينغمسون أحيـانا فى تفـاهات الحيـاة وملذاتها وهـم يرتـادون بؤر

المخدرات بين المنـازل القذرة حيث بائعات الهوى والأسر المطحـونة ، فالخير والشر فيهم والقوة والضعف فيهـم ، غير أنهم تميزوا عن بقية «أولاد حارتنا» بهذه الشهوة العارمة للاصلاح الاجتماعى .

إن « أولاد حارتنـا » هم خليط من النماذج الانسانيـة يهدف نجيب محفـوظ من تقـديمهم ــ فى نهايـة الأمـر ــ إلى تأكيـد قيم العـدالـة الاجتماعية والمحبـة والكرامـة والتقدم وكلها من القيـم التى حرصت على تأكيدها جميع الأديان السماوية .

هذا هو الموقف الحقيقى لنجيب محفوظ ابن حارتنا .

وهذا هــو العالم الحقيقـى لهذه الحارة الكونيـة .. عالم يـؤكد على ضرورة التمسك بالقيم العليا للدين ..

وأن يتوسل بالعقل والعلم للوصل إلى اليقين !

د . سـمير سرحـان


٣
أولاد حارتنا
بين
خصوصيتها المصرية
وعموميتها الانسانية
بقلم:
محمود أمين العالم

قد يكون من من التعسف أن نقول عن أدب نجيب محفوظ إنه يتنامى منذ بدايته حتى اليوم فى إطار نسق واحد لا يتغير ، سواء من حيث جمالياته التعبيرية أو دلالته الاجتماعية والفلسفية . فلا شك أن هناك تنويعات وتغييرات واختلافات وتطويرات لا تتمثل فحسب فى المراحل المختلفة المتجددة لإبداعه الروائى ، بل أحيانا داخل المرحلة الواحدة . على أن هذا لا ينفى وجود بعض الثوابت الأساسية فى هذه المراحل جميعا ، التى تسهم ــ مع عناصر وسمات أخرى ــ فى إضفاء وحدة نسقية عامة على أدب نجيب محفوظ . فهناك نسق عام لأدبه كله ، ولكنه نسق يتدفق بأمواج متتابعة متجددة متنوعة متراوحة مختلفة من الرؤى والأبعاد والأعماق والتوجيهات والمواقف شأن الحياة الإنسانية نفسها .

ولهذا أكاد أقول : إنه لم يكن أمرا عابرا أو من قبيل المصادفة ـ وإن تكن للمصادفة دلالة موضوعية ضرورية فى أدب نجيب محفوظ ـ أن يبدأ نشاطه الثقافى والإبداعى بترجمة كتاب انجليزى عن مصر القديمة الفرعونية ، وهو مايزال طالبا فى المدرسة الثانوية ، ثم يكتب بعد ذلك ثلاث روايات مستلهمة من التاريخ المصرى القديم هى «عبث الأقدار» و «رادوبيس» و«كفاح طيبة» يؤرخ بها لوطنه ـ على حد تعبيره ــ «فى صيغة روائية» . بل أكاد أقول إن هذه البداية المبكرة

للتعرف على تاريخ مصر ، وصياغته روائيا ، هى سمة أساسية وثابت جوهـرى فى أدب نجيب محفوظ كله منـذ البدايـة حتى اليوم . ولست أقصد بتاريخ مصر هنـا ، تاريخها السياسى ، وإن يكن هـذا التاريخ السياسى بعدا من أبعاد عـالم نجيب محفوظ الروائى . ولست أقصد به اختيار أحـداث مصرية ، أو شخصيات مصرية ، فى هـذه الرواية أو تلك ، كما يفعل العـديـد من الـروائيين المصريين ، وإنما أقصـد الهمّ المصرى الشامل ، الكيان المصرى ، الهوية المصرية ، الحقيقة المصرية ، المزاج المصرى ، الـروح المصريـة ، المسألـة المصـــرية ، الطــريق المصـرى لـكى تـكـون مصـر وتتحقق مصريتها ، ولكى تصير مصر وتتحرك وتتقـدم . ولهذا فهو فى مشروعـه الإبداعى المتنـامى لا يؤرخ لمصر تأريخا سياسيا ، بل يـؤرخ تاريخا عميقا ، يجمع بين الاتجاهات السيـاسيـة والأوضـــاع والمواقف الاجتماعيـة ، والشعبيـة والأذواق الأدبيـة والفنية ، والقيـم الأخلاقيـة والملامح الموضـوعيـة والذاتيـة المختلفة الفرديـة منها والمجتمعية ، فى تفاعلها وتنويعـاتها ، فى ثوابتها ومتغيراتها ، فى تنـاقضاتها وتـوافقـاتها . وهو لا يعبر عن هـذا تعبيرا روائيا وصفيا ، بل تعبيرا صراعيا من نـاحية ، وتعبيرا تقييميا توجيهيا من ناحية أخـرى ، وإن لم يفصح عن هذا الجانب التقييمى التوجيهى بشكل جهير فى بنيته الروائية الفنيـة . بهذا الوعى الشامل كانت مصر منذ البـداية وماتزال حتى اليـوم ، هى همه الأول والأكبر والأساسى ؛ وبفضل هذا الهم كتب وأبدع وكان إبداعـه شاهدا مسئولا عن حقيقتنا المصرية خاصـة وعن العصر كله عامة ، وبسبب هـذا الإبداع المخلص المتفانى الجسور النبيل كاد أن يكون شهيدا .

على أنه مهما اتسعت وتعمقت وتنوعت أبعـاد مصريته الروائية ، أو روائيته المصرية ، فلقـد كان هناك دائما ومايـزال محور أساسى تكاد تدور حوله أغلب تساؤلاته فى تجسيـدها الروائى الفنى ، هذا المحور ــ فى تقديـرى ــ هـو محور السلطة ببعـديها : البعد السيـاسى العملى ، والبعد الإيديولوجى والقيمى ، أو بتعبير آخر : طبيعة السلطة الحاكمة

المتحكمة فى مصر ، وطبيعة الفلسفة والقيم السائدة فى إطار هذه السلطة ، وما يواجهها من صراعات وفلسفات وقيم أخرى .

وفى رواياته الثلاث الأولى التى أشرنا إليها من قبل يكاد يركز على الطبيعة الاستبدادية للحكم ، فضلا عن إرادة التغيير والتحرير .

ففى «عبث الأقدار» تتحول السلطة من سلطة بالوراثة إلى سلطة بالعمل ، وفى «رادوبيس» يثور الكهنة على سلطة الفرعون الخارج على القيم ، وفى «كفاح طيبة» يصل أحمُس إلى السلطة بمكتشفاته وانتصاراته . وتكاد هذه الروايات الثلاث رغم مادتها التى تنتسب إلى تاريخ مصرى قديم ، أن تشير إشارات رمزية واضحة إلى واقع السلطة فى مصر أثناء الحكم الملكى المستبد والفاسد ، فضلا عن الاحتلال البريطانى المسيطر فى الثلاثينيات والأربعينيات .

على أن نجيب محفوظ سرعان ما ينتقل من هذه المرحلة الروائية الأولى التى تستوحى تاريخ مصر القديمة ، إلى المجتمع المصرى الراهن نفسه فى أكثر أحيائه الشعبية التى هى كما يقول فى مدخل رواية «أولاد حارتنا» : أصل مصر أم الدنيا . وتبدأ هذه المرحلة برواية «القاهرة الجديدة» وتنتهى برواية «السكرية» أى بالجزء الثالث والأخير من «الثلاثية» مرورا برواية «خان الخليلى» فرواية «زقاق المدق» ، فرواية «السراب» ، فرواية «بداية ونهاية» وأخيرا الثلاثية بأجزائها «بين القصرين» و «قصر الشوق» و «السكرية» .

وقد لا تبرز قضية السلطة بمعناها السياسى أو المعنوى والقيمى فى هذه الروايات بشكل مباشر ، إلا أننا نستشعر قضية السلطة فى تجلياتها المختلفة : الأبوية ، والاجتماعية ، والثقافية والأخلاقية والجمالية فضلا عن السياسية . ففى مجمل هذه الروايات تبرز الصراعات وتحتدم بين هذه الأشكال المتنوعة من التجليات السلطوية ، فى ملامحها الفردية والنفسية والفئوية والطبقية والجماعية والسلوكية والقيمية والإيديولوجية المختلفة . ولعل «الثلاثية» أن

تكون الملحمة الشاملة التى تجمع كل العناصر والسمات الأساسية فى الروايات السابقة عليها منذ «القاهرة الجديدة» وتعبر عن رؤية فنية بالغة الرفعة والعمق والحيوية لما كان يحتدم به تاريخ مصر من صراعات وتناقضات ونضالات وتوجيهات وتطلعات سياسية ووطنية واجتماعية وثقافية منذ بدايات القرن العشرين حتى عام ١٩٤٤ . فأحداث «بين القصرين» تقع بين عام ١٩١٧ وعام ١٩١٩ ، و«قصر الشوق» بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٧ و «السكرية» بين عام ١٩٣٥ وعام ١٩٤٤ .

وفى هذا الجزء الثالث والأخير من «الثلاثية» ، نستشعر الغليان الفكرى والمخاض الاجتماعى بحثا عن مخرج ، عن طريق يتجاوز محنة الاحتلال البريطانى الذى كان لايزال فوق أرض مصر وحياتها ، فضلا عن الملكية المستبدة الفاسدة والتخلف الاجتماعى السائد .

لقد انتهى نجيب محفوظ من كتابة «ثلاثيته» مع انفجار ثورة يوليو ١٩٥٢ ، رغم أن «الثلاثية» تقف بأحداثها عند عام ١٩٤٤ . وكان نجيب محفوظ يستعد لمواصلة استكمال صرحه الروائى المصرى مستلهما استلهاما إبداعيا للواقع المصرى فى مرحلة ما قبل قيام هذه الثورة . وكانت فى جعبته جملة من المشروعات المقترحة . وجاءت ثورة يوليو فغيرت الخريطة السياسية والاجتماعية والإيديولوجية لتلك المرحلة .

لقد قامت سلطة جديدة ، وبدأت ملامح غامضة لم تتحدد بعد لخريطة جديدة . وكان من الطبيعى أن يتساءل نجيب محفوظ مع غيره من المثقفين والمفكرين عامة : هل هذه الثورة هى مجرد انقلاب علوى ــ كما أسماها كتاب صدر فى ذلك الحين ــ لن يغير من طبيعة السلطة ، أو بنية المجتمع ؟ أم هى ثورة حقيقية ستعيد بناء السلطة والمجتمع بناء جديدا فى مختلف جوانبه ؟ ولم تكن هذه التساؤلات مجرد تساؤلات نظرية ، بل راحت تبحث عن إجاباتها فى أرض الواقع

السياسى والاجتماعى .

ولهذا كان من الطبيعى أن يتوقف نجيب محفوظ المشحون بالهم المصرى ، لا عن مواصلة استكمال مشروعه السابق فحسب ، بل أن يتوقف تماما عن الكتابة . بل لعله قال آنذاك : لم يعد عندى ما يقال . بل قال : إن أدب المرحلة الجديدة بعد قيام هذه الثورة هو أدب الطبقة العاملة . بل قال إنه قد انتهى أدبيا .

وطوال سبع سنوات ، أى من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٩ ، قامت ثورة يوليو بممارسة سلطتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى حققت العديد من الأحلام الوطنية والتقدمية التى كان يحلم بها نجيب محفوظ ، والتى تضمنت - بشكل أو بآخر - أعماله الروائية السابقة بعض ملامحها وبشارتها . إلا أن ثورة يوليو ، فى تحقيقها لهذه الأحلام ، لم تتصادم فقط مع أعدائها التقليديين من قوى استعمارية وصهيونية ورجعية عربية فى الخارج ، أو قوى استغلالية شبه إقطاعية أو رأسمالية فى الداخل ، وإنما تصادمت كذلك مع قوى سياسية واجتماعية وإيديولوجية ، كانت قد تحالفت معها فى البداية ، بل شاركت معها فى قيام الثورة ، مثل حركة الإخوان المسلمين ، وفصيل من فصائل الحركة الشيوعية المصرية . وكان من نتيجة هذا ، تصفية البنية السياسية الليبرالية التى كانت سائدة قبل الثورة ، وإلغاء الأحزاب وفرض نظام التنظيم السياسى الواحد ، وفضلا عن هذا ، فقد امتلأت السجون والمعتقلات فى بداية عام ١٩٥٩ بالشيوعيين المصريين إلى جانب من كانوا بها من قبل ، فضلا عن أعضاء حركة الإخوان المسلمين الذين كانوا فى السجون كذلك منذ محاولة الاعتداء على جمال عبدالناصر عام ١٩٥٤ .

ولهذا فبرغم ما حققته الثورة من إنجازات واتخذته من مواقف كانت من بعض أحلام نجيب محفوظ وأحلام المثقفين الوطنيين والتقدمين عامة آنذاك ، إلا أن هذا الوضع السياسى الملتبس -

وخاصة فيما يتعلق بالطابع العسكرى للسلطة الجديدة ، والموقف من الديمقراطية السياسية ـــ قد فجر أزمة بين المثقفين والثورة ، عبر عنها محمد حسنين هيكل بعد ذلك عام ١٩٦١ فى كتابه «أزمة المثقفين» .

ولم يكن تـوقف نجيب محفوظ عن الكتـابة منـذ قيام الثـورة عام ١٩٥٢ حتى أواخر الخمسينيـات إلا تعبيرا ـ فى تقـديرى ـــ عن أزمته الكتابية الإبداعية فى مجتمع هذا الوضع الجديد الملتبس المتناقض بين شعاراته ومنجـزاته السياسية والوطنية والاجتماعيـة المتقدمة ، وبين الشكل غير الديمقراطى فى الممارسة السياسية والاجتماعية .

فى هذا الإطار صـدرت رواية «أولاد حارتنا» عـام ١٩٥٩ . لعله بدأ كتابتها قبل ذلك بعامين أو بعام ونصف العام ، وبدأت جريدة الأهرام فى نشر الرواية مسلسلة يوميـا ابتداء من يوم ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٩ حتى يـوم ٢٥/١٢/١٩٥٩ . وكـان صـدورهـا فى لحظـة من أشـد لحظـات تـاريخ ثورة يـوليـو تأزمـا . فمئات الشيـوعيين والإخـوان المسلمين فى السجون ، والمعركة على أشدها بين قيادة الثورة وبين من كانوا حلفاء لها بالأمس من قوى يسـارية وشيوعية عربية ، فضـلا عن الاتحاد السـوفيتى والمنظـومـة الاشتراكيـة والحركـات والتنظيمات الديمقراطية والتقدمية فى العالم أجمع .

وقـد أغامـر بـالقـول بأن نجيب محفوظ قـد كتب روايتـه «أولاد حـارتنـا» كـرد فعل نقـدى أدبـى إبـداعى لهذا الـواقـع السيـاسـى والاجتماعى والإيديولوجى الجديد الـذى أخذت تسعى ثورة يوليو إلى تحقيقه . فهذا الواقع الجديد لم يكن قد تحددت ملامحه النهائية بعد ، وإن تحددت بعض مـلامحه وخـاصـة فى هــذه العـلاقـة الملتبسـة والمتناقضـة بين الشعارات والمنجـزات المتقدمـة لثورة يـوليو ، وبين ممـارساتها الـلاديمقـراطية من النـاحيـة السيـاسية . وكـان نجيب محفوظ قد انقطع عن مواصلة الموضـوع الاجتماعى الذى كان شاغله ومادتـه التى يستلهمها فى إبداعـه الأدبى السابق والذى جـاءت ثورة

يوليـو فخلخلت وغيرت من خريطتـه . ولهذا لم يكن يستطيع أن يكتب عن الـواقع الجديد ــ إذا أراد أن يكتب عنـه ــ بعناصر مستلهمـة من الـواقع القديم ، ومـا كان هـذا الـواقع الجديد قـد استقرت مـلامحه النهائية حتى يتمكن من الكتابـة عنه ، فضلا عن ان الطابع العسكرى لسلطة الحكم الجديد وللـوضع العام ما كان يتيح لـه التعبير الواقعى إذا أراد أن يعبر عنه . على أن نجيب محفـوظ كان يـريد أن يكتب ، وأن يعبر . وكـان مأزقـا يعيش هـذا الالتباس والتنـاقض بين الشعـارات والممارسات . ولعله كان يشير إلى نفسه على لسان الرواية فى افتتاحية «أولاد حارتنا» الذى يقول : «وما أكثر المنـاسبات التى تدعو إلى ترديد الحكايات . كلما ضـاق أحد بحاله أو ناء بظلم أو سوء معـاملة ، أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال بحسرة : «هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه ، ونحن مستحقو أوقافه، فلماذا نجوع وكيف نضام ؟!» ثم يأخذ فى قص القصص والاستشهاد بسير أدهم و «جبل» ورفاعة و «قاسم» من أولاد حارتنا الأمجاد .

وكانت حـال نجيب محفوظ فى ظل الأوضـاع الجديدة ـ كحـال هذا الـراوى الـذى أصبح هـو نفسه بعـد ذلك ــ تـدعـوه إلى أن يحكى ، وتفرض عليه أن يحكى بـالواقع الرمزى بدلا من الزمـز الواقعى الذى كـان منهجه فى السـابق من رواياتـه . **ولم يكن هناك أفضل وأسلم وآمن من تاريخ الـرسل نموذجا جـاهزا يتخذ من إطـاره البنيوى العام ، ومن قيمه المثـالية الرفيعة مـادة ينسج بهما نقده للواقع السائد ورؤيته الفكريـة والفنية التى يتطلع إلى تحقيقها فى مصر ولمصر وربما للإنسان المعاصر حيثما كان .**

لم يكن فى الأمر إعادة كتـابة لتاريخ هذه الرسـالات الدينية ، وإنما استلهمها رمزيا لنقد الحاضر الملتبس والتبشير بعالم أفضل يمكن أن تتجدد فيـه السلطة تجددا لمصلحة النـاس جميعا ، ويـزول الالتباس والازدواج بين مـرجعيـة القيم المثـاليـة العليـا والممارسـة العمليـة ، وتتوافـر فيه إمكـانية الانتصـار النهائى للغـايات العليـا للرسـالات

الدينية بالإضافة إلى الخبرات الإنسانية المتجددة التى تتمثل فى المعرفة والعلم والتكنولوجيا .

على أن رواية «أولاد حارتنا» وإن كانت ذات رؤية إنسانية شاملة ، تتعلق بدلالتها الجوهرية بالإنسان حيثما كان ، فإنها ـ فى تقديرى كما ذكرت ـ كانت تجتهد لتقديم موقف نقدى بديل لمصر فى مواجهة الموقف الذى أخذ يسود فيها منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٩ كما سبق أن ذكرنا . ولهذا ، فالجبلاوى فى رواية «أولاد حارتنا» هذا الجد الأكبر لكل أولاد الحارة ، الذى يطل دائما على الحارة ويغمر أفقها بجسمه العملاق ووصاياه العشر منذ بداية نشأة الحارة حتى وفاته ، هذا الجبلاوى ليس من الضرورى أن يُقرأ فى الرواية باعتبار أنه الله الخالق لكل شىء ، وإن كانت بعض فقرات الرواية قد توحى بذلك ، على أنه قد يرمز إلى ما يعنيه الله فى الأديان جميعا من تجسيد معنوى لأشرف قيم الحق والعدل والمساواة والمحبة والعلم المثمر ، أى هو رمز لمرجعية مثالية تمثل فى الوصايا العشر . إلا أن الله الخالق تحديداً وارد فى الرواية فى أكثر من موضع مما يجعل للجبلاوى دلالة خاصة مختلفة وإن تكن مراوغة . فنقرأ فى الرواية مثل قول «همام» لأخيه «قدرى» :

(أنت مجنون وحق خالق الكون) ، وقول جبل : (الحمد لرب السموات على أنك تتمتع بصحتك) ، إلى غير ذلك. الجبلاوى إذن فى الرواية ليس هو الله خالق الكون ورب السموات ، وفضلا عن هذا فإن الوصايا العشر فى الرواية ليست هى الوصايا العشر أو الألواح العشر المذكورة فى النصوص الدينية ، وإنما هى إشارة متروكة فى الرواية مجهلة بغير تحديد ، وفى تقديرى أنها متروكة هكذا عن عمد لأنها وصايا تتجدد بتجدد احتياجات الحياة رغم جذورها التاريخية الثابتة . ولهذا ، فالجبلاوى فى هذه الرواية فى إيحائه الآنى الذى يحدده السياق التاريخى لكتابة الرواية ، فضلا عن القراءة الشاملة لأدب نجيب محفوظ ، هو أقرب ما يكون إلى ما تحمله ثورة يوليو من

شعارات ومبادىء وأهداف وقيم أساسية ، أى من مرجعية قيمية لسلوكها وممارستها ، كما كان الشأن فى كل ثورة حملتها الرسالات الدينية من قبل . لهذا لم تفصح الرواية عن حقيقة الوصايا العشر التى يحملها ويخفيها الجبلاوى ، وإن يكن يحاسب أبناءه بمقتضاها .

وفى مواجهة هذه القراءة الآنية للجبلاوى ووصاياه المبدئية العشر ، تجرى الممارسة السلوكية العملية المناقضة لهذه الوصايا ولهذه المرجعية القيمية عامة ، ففى مواجهة الجبلاوى ووصاياه ، كان نظار الأوقاف ، والفتوات الذين يحمونهم ويشاركونهم فى الاستئثار بريع الأوقاف وحرمان أولاد الحارة منه فضلا عن إذلالهم . إنه التناقض بين المثال والواقع المتحقق ، بين القيمة المرجع والممارسة المضادة ، بين القدرة والنموذج النقيض .

خلاصة الأمر ، أن جوهر «أولاد حارتنا» فى تقديرى هو النقد القيمى الفكرى الرمزى للسلطة الناصرية للتناقض بين شعاراتها ومبادئها وبين بعض ممارساتها وخاصة تلك المتعلقة بالديمقراطية السياسية . إلا أن الرواية فى الوقت نفسه تسعى لتقديم رؤية تبشيرية تزيل بها هذا التعارض بين المثال والواقع ، بين السلطة والمجتمع ، بين السياسى والأخلاقى ، بين النظرى والعملى ، بين الموضوعى والذاتى فى مصر بشكل عام . وبهذا تكون هذه الرواية رغم بنيتها الرمزية الملحمية ، امتدادا للهم الأكبر الدائم الذى كان يشغل فكر نجيب محفوظ وضميره وإبداعه الأدبى ، وأعنى به قضية السلطة فى مصر .

نحن إذن ما نزال نواصل فى «أولاد حارتنا» مع نجيب محفوظ ما بدأه فى رواياته الثلاث الأولى من اهتمام وهم بقضية السلطة فى مصر . بل لعلنا نجد هذه القضية مستمرة فى بعض رواياته التالية لأولاد حارتنا وإن اتخذت أشكالا مختلفة ، فقد تتخذ السلطة شكل **الأب المفتقد** كما فى رواية «الطريق» ، أو **اليقين المفتقد** كما فى رواية

«الشحاذ» أو قد نعود إلى ما يشبه «أولاد حارتنا» فى روايات أخرى لعل أبرزها وأقربها رواية «الحرافيش» .

ولنحاول الآن أن نختبر هذا الغرض بتحليل داخلى لبنية الرواية .

تتكون الرواية من خمس مراحل . على أنه برغم تنوع هذه المراحل واختلافها ، من الناحية الفلسفية والقيمية ، فإننا نستطيع أن نتبين بعض الثوابت الأساسية فيها جميعا . ولنبدأ بالثوابت المادية وصولا إلى الثوابت المعنوية والقيمية .

لعل أول هذه الثوابت هو الثابت الجغرافى . فنحن طوال هذه الرواية نتحرك فى حارة معينة معروفة من حوارى القاهرة ، نتحرك بين تضاريسها العامة والفرعية ، وتكاد الحارة فى هذه الرواية أن تكون صورة واقعية دقيقة لحوارى وأزقة ومنعطفات منطقة الجمالية .

حقا إن بعض هذه الحوارى سوف تنتقل مع حركة الرواية الفلسفية من مسماها المكانى إلى مسماها المعنوى ، فتصبح لدينا مع تطور الرواية حارة «جبل» وحارة «رفاعة» وحارة «قاسم» . إلا أن الجغرافيا المكانية تظل ثابتة . وهى جغرافيا مكانية محدودة ، ولكن الرواية تعدها فى مستهل صفحاتها الأولى : أصل مصر أم الدنيا ، وهذا ما ينقل الجغرافيا القاهرية المحدودة ، إلى الجغرافيا المصرية الأكثر اتساعا وامتدادا ثم إلى الجغرافيا الأرضية الإنسانية الشاملة . ويكاد المكان المحدد يفقد بهذا لا مجرد محدوديته ، بل يفقد مكانيته كذلك ويصبح دلالة قيمية فنية تاريخية شاملة .

وحول هذه الجغرافيا المكانية المحددة ، تشير الرواية دائما إلى ثابت جغرافى آخر هو الخلاء . ففى هذا الخلاء كان يعيش الجبلاوى وحده قبل بنائه الحارة ، ويكاد يشكل الخلاء فى الرواية أكثر من دلالة رمزية ، فهو المطلق حينا ، وهو ساحة الطرد والوحدة والحرمان من رحمة الجبلاوى حينا آخر ، أو هو ساحة الهروب من طغيان الفتوات

حينا ثالثا ، وهو ساحة العدوان والمعارك حينا رابعا ، وهو ساحة التأمل والاستلهام حينا خامسا ، وهكذا تتنوع دلالة الخلاء تنوعا معنويا وقيميا .

وإلى جانب هذا الثابت الجغرافى المتمثل فى الحارة والخلاء ، هناك الثابت اللغوى الذى يعمق الطابع الجغرافى المحدد ، ويضفى عليه دلالته المحلية الخاصة ، أو يؤكد له باستمرار هذه الدلالة ، ويتمثل هذا فى لغة الرواية ، سواء فى بعض سردها ، أو فى حواراتها . فبالرغم من أنها لغة عربية رصينة قد ترتفع أحيانا إلى مستوى التعابير الأسطورية والشعرية ، فإنها زاخرة بالتعابير والأهازيج الصارخة بشعبيتها القاهرية . وتكفى الإشارة لبعض نماذج منها مثل : «يا داهية دقّى» و «مط بوزه» و«العجل وقع هاتو السكين» و «وطى البصلة» و «يمحنّى ديل العصفورة» و «نقّطنا بسكوتك» و «ياملبّس حمدان الطُرح» و «يا عجوزيا قارح» و «فتّك بعافية» و «يفّك حضْره» و « يا خبر اسود» إلى غير ذلك . وبهذه الجغرافيا اللغوية يتعمق كما ذكرنا الطابع القاهرى الخالص للرواية .

وتنقلنا هذه الجغرافيا اللغوية إلى جغرافية بلاغية تكاد أن تكون ثابتا من ثوابت الرواية كذلك ، وتتمثل فى سيادة التشبيهات الطبيعية . فالرواية تتحرك فى سردها الوصفى بالعديد من التشبيهات الطبيعية ، أى محاولة تفسير بعض الحالات النفسية أو المعنوية بما يشابهها من حالات مادية أو طبيعية . وما أكثر أمثلة هذه التعابير التى تكاد تشكل البنية البلاغية للرواية ، وتكفى الإشارة كذلك إلى بعض نماذجها مثل : «انطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق من فيه عند العطس بغير ضابط» ومثل : «إنه متهم دون ذنب جناه كالقلّة التى تسقط فوق رأسى لأن الريح أطاحت بها» ومثل «دموعك إن هى إلا عرق الخبث الذى يمتلىء به جسدك» ومثل : «وإذا بالغضب يختفى فجأة كأنه شعلة رُدمت بتراب كثيف» ومثل : «واكفهر الوجه الكبير حتى حاكى

لونه النيل فى احتـدام فيضـانه» ومثل : «فقاطعـه الأب بصوت كضربة الفأس فى الحجر» ومثل : «كـالثوب المنشى بعـد نقعه فى الماء» ومثل : «وانقض الفـزع على النفوس كما تنقض الحدادى على الفـراخ» ومثل : «تكـاثف الحقـد كقطع الليـل» إلى غير ذلك . وتكـاد هـذه التشبيهـات البلاغيـة رغم قيمتهـا الجمالية الخاصـة ، أن تكون امتـدادا وتعميقا معنويا للواقع الجغرافى المحـدد الخاص التى تصدر فيه وعنه ، وأعنى به الواقع المصرى القاهرى .

_ ومن هذه الثوابت الجغرافية واللغـوية والبلاغية ننتقل إلى الثوابت المعنوية الأسـاسية فى الرواية وفى مقدمتهـا شخصية الجبلاوى التى يهيمن وجودها على الرواية كلها منـذ بدايتها حتى نهايتها ، حتى بعد إعـلان موت الجبـلاوى فى الجزء الخامس الأخير . ذلك أن عرفـة بطل هذا الجزء الخامس يسعى للقاء الجبلاوى ، ثم يسعى إلى إعادة الحياة إليه بعد مـوته . والجبلاوى ـ كما سبـق أن ذكرنا ـ هـو رمز لمرجعية القيم الإنسانيـة الأساسية التى يـدور حولها الصراع طوال الـرواية ، من أجل تحقيقهـا وتـرسيخهـا . إنها قيم العـدل والمسـاواة والحق والكرامة التى ينبغى أن تسود بين البشر .

فالجبلاوى هو جد أولاد الحارة جميعا ، وهو مالك أرض وصاحب أوقافها ، وهو الراغب والشارط ـ بحسب الوصايا العشر ـ توزيع ريع هـذه الأوقـاف بـالتسـاوى والعـدل على أهل الحارة جميعـا . ولهذا **فالمعـركة طـوال الروايـة حول الجبـلاوى ليست مجرد معـركة معنويـة قيمية أخلاقية ، بل تـرتكز على أساس مادى موضوعى هو ملكية الأوقـاف وضرورة توزيع ريعها على أولاد الحارة .** على أنه فى مواجهة هـذه المرجعية القيمية الموضوعية الثابتـة طوال الرواية والتى يدور حولها الصراع . هناك ثابتـان آخران يكملان هذه المرجعية تكميـلا ضديـاً هما : نظـار الوقف الـذين يسيطـرون طوال الأجـزاء الخمسة للروايـة على ريع الأوقاف وعوائدها ، ويحتكـرونه لصالحهم وحدهم ويحرمون منه مستحقيه من أولاد الحارة جميعا .

إن هؤلاء النظار هم ممثلو السلطة الحاكمة المستبدة المستغلة التى تتنـوع وتختلف أشخاصـهم وأسماؤهـم وأسـاليبهم طـوال الروايـة ، ولكنهم جميعـا رمـز ثابـت من رموز الـروايـة ومحور أسـاسـى من محاور الصراع فيها . على أن نظـار الأوقاف ينقسمـون طوال الـرواية إلى ثابت ثان آخر هـو امتداد لهم وأداة من أدوات سلطتهم القمعية هـم الفتـوات . إنهم رمـز ثابت كـذلك على اختـلاف أسمائهم وأسـاليبهم ومواقعهم طـوال الروايـة . إنهم الجهاز القمعى العملى للسلطـة . وقد يرتبط بهذه السلطة ، وجهازها القمعى بعد ثالث يمثل القمع المعنوى ، أو بتعبير آخر : التغييب المعنوى عن المرجعيـة القيمية وهو الحشيش والمخدرات عامة . فيكاد الحشيش فى الروايـة أن يكون ثابتا كذلك من ثوابتهـا وجهازا آخر من أجهـزتها للسيطرة والقمع . إنـه يفسد أولاد الحارة ويغيبهم عن حقوقهم ، كما يغيب السلطـة نفسها عن واجباتها إزاء حقوق هؤلاء الأولاد !

والـروايـة تعبر عن الحشيش وعن جلسـاته فى مختلف مـواقفهـا ومـراحلها تعبيرا بـالغ الرقـة والعذويـة والنعومـة ، تعميقا وتأكيـدا لـدلالتـه التغييبية مثل : «رائحـة الحشيش الغنـائيـة» ومثل «ودارت الجوزة كمـلاك فى حلم ، وغنى الماء فى القنينـة وتثاءب الانسجـام» إلى غير ذلك .

وهكذا تقوم بنية الـرواية منذ جزئها الثانـى على وجه التحديد على ثنـائية ضـدية استبعـاديـة تتمثل من ناحيـة فى الجبلاوى وشروطـه العشرة كمرجعية أخلاقية ومعنوية وقانونية ، وموضوعية وتتمثل من نـاحيـة أخـرى فى النظـار والفتـوات والحشيش كقـوة انتهـاك لهذه المرجعية وخروج على شروطها .

على أن هذه الثنـائية الاستبعاديـة بين الجبلاوى ووصـاياه العشر من ناحيـة والنظار والفتـوات والحشيش من ناحيـة أخرى ، تتمثل فى ثنائية أخـرى هى الأصل لهذه الثنائية ، وهى ثنائية تنبع منـذ البداية

من الجبلاوى نفسه وتتمثل فى ولديه : «**أدهم**» وهو الرمز الفنى لآدم فى الرواية ، و «**إدريس**» وهو رمزها الفنى لإبليس أو الشيطان ، ومن أدهم يتسلسل نسلٌ جبلاوىٌّ الولاء وأدهمى الطبيعة لو صح التعبير ، وإن تنوعت فضائله ودعاويه ورسالاته ، ويتمثل فى « جبل » و «رفاعة» و «قاسم» ، وهى الرموز الفنية لأصحاب الرسالات الدينية الثلاث ، ويضاف إليهم «عرفة» وهو الإضافة المعرفية العلمية التكنولوجية العصرية لهذه الرموز الدينية . ومن «إبليس» يتسلسل نسل نظار الأوقاف والفتوات . على أنه بين نظار الأوقاف والفتوات ثنائية أخرى قد تصل كذلك إلى حد الإبادة والاستبعاد عندما يحاول أحد نظار الأوقاف الاستئثار بريعها دون الفتوات كما حدث فى مرحلة «عرفة» .

وهكذا يتحدد معمار الرواية تحديدا واضحا وحاسما فى هذا الصراع المستمر الذى يكاد أن يكون مطردا نمطيا بين نسل «أدهم» ونسل «إدريس» . **على أنه ليس مجرد صراع أخلاقى مطلق بين الخير والشر ، وليس مجرد صراع ميتافيزيقى بين مفاهيم وقيم مطلقة ، وإنما هو صراع عملى حول مصالح ، حول ملكية أرض ، ونظام حكم ، وفلسفة علاقات محددة بين أولاد الحارة الواحدة . ولا شك أن هذا الصراع الذى عبرت عنه الرواية تعبيرا رمزيا هو صراع تاريخى إنسانى شامل ، كان ومايزال جوهر الصراع البشرى عامة منذ نشأة المجتمع وظهور الملكية الفردية حتى اليوم** . إلا أن الرواية وإن عبرت عن هذه الدلالة الإنسانية التاريخية العامة ذات العمق الدينى ، فإنها قد عبرت عنها بأدوات ورموز وأماكن ومسميات وأساليب تعبير مصرية خالصة ، وعبرت عنها كإجابة نقدية توجيهية تبشيرية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فى مواجهة الأزمة التى كانت تمر بها الأوضاع المصرية عامة ، ونظام الحكم المصرى خاصة فى المرحلة الناصرية ، ابتداء من عام ١٩٥٢ ، ولا تتوقف الدلالة النقدية التوجيهية التبشيرية للرواية عند عام ١٩٥٩ ،

وهو العـام الذى بدأ فيـه نشر الرواية ، بل تمتد هـذه الدلالة النقـدية حتى يومنـا هذا ، وستظل ممتـدة ما بقى هـذا الصراع وهذه الثنـائية الضدية الاستبعـادية بين المثال والواقع ، بين سلطـة الحكم ومصـالح الناس وحقوقهم .

والرواية لا تقول كلماتها فى فصلهـا أو جزئها الخامس الأخير ، بل لعل هذا الجزء الأخير أن يكون بلورة وتنمية وخـلاصة لمجمل أجزائها الخمسة .

ففى الجزء الأول يبرز الصراع بين أدهم وإدريـس بسبب اختيـار الجبـلاوى لأدهم مسئولا عن إدارة الـوقف بما يؤهلـه ذلك لوراثتـه . **وهكـذا نتبين منـذ البدايـة أن الصراع لا يحتـدم بين قيمتين معنويتين أخلاقيتين ، بل بين سلطة ومصلحة .**

على أن أدهم سرعان ما يطرد من حـديقة الوقف ، ومن حياة النعيم التى كان يحيـاها فى هذه الحديقة بسبب وقـوعه فى خديعة نسجهـا له أخـوه إدريس . على أن المهم هو أنـه فى هذه المرحلـة الأولى من مسيرة التاريخ الإنسانى فى هذه الـرواية ، كان أدهم يحلم بأن يظل مستمتعا طـول حيـاتـه بـالنعيم دون أن يقـوم بعمل أو جهـد اللهم إلا الغنـاء والاستمتـاع بـالسعـادة ، وهـو الحلم الإنسـانى الأول الـذى تسعى مسيرة **«الرواية ـــ الإنسان»** أن تحققه بالعمل ، **أى أنه لا سبيل إلى تحقيق سعادة ونعيم اللا عمل إلا بالعمل نفسه . هذا هو بعد من أبعاد فلسفة الرواية .**

وننتقل فى الجزء الثـانى من المسيرة إلى مـرحلة «جبل» . ومع هـذه المرحلة تبدأ مرحلـة عمرانية جديدة ، فلم تعـد الجغرافيا الأولى للعالم محدودة بـالبيت الكبير الذى يقطنـه الجبلاوى وبحـديقته الغنـاء فى مواجهة الخلاء ، بل انتشر العمـران بفضل أموال الوقف ، وتم تخطيط الحارة تخطيطا يكاد يعبر عن ثنائيـة الأوضاع فى الحارة . فهناك البيت الكبير ، حيث يقيم الجبلاوى الـذى أغلق بابـه واعتزل الدنيـا . ويمتد

أمـام هذا البيت الكبير صفـان من البيـوت : صف على رأســه ناظـر الوقف ، وصف آخر مواز له على رأسه بيت الفتوة .

وهنا تبـدأ قصة استئثار النـاظر بـريع الوقف والتقتير فى الأرزاق وحرمـان بقية أولاد الحارة من ذلك الـريع معتمدا على نبـابيت الفتوة وأتباعـه . ويكون أبناء أدهم وإدريس قـد تناسلوا . أمـا أبناء «أدهم» فهم الفقـراء المطحـونـون المذلـون المهانـون فى الحارة ، وأمـا أبنـاء «إدريس» فهم موزعون بين عائلـة الناظر والفتوات . ويزداد فى الحارة الفقـر والبـؤس والقـذارة والمهـانـة والتسـول من نـاحيـة ، والقمع والاستغـلال من نـاحيـة أخـرى ، كما يصبح الحشيش هـو وسيلـة للإلهاء والتخدير والتغييب .

على أن أبنـاء الحارة من سـلالـة «أدهم» الـذين تمثلهم عـائلـة آل حمدان ، يقررون الذهـاب إلى الناظر للاحتجاج على سـوء الفقر وسوء الأحوال وســوء المعاملة ، طـالبين العدالة فى تـوزيع حقهم فى الوقف . وينكر الناظر عليهم حقهم ، ويطـردهم من حضرته ، ويسعى للاتفاق مع الفتـوة وأعـوانـه لتأديبهم . وفى بيته كـان «جبل» . تبنتـه زوجـة الناظر منـذ أن كان طفلا صغيرا فقيرا منبوذا ، ولكنـه كان من أبناء آل حمدان . ولهذا يـرفض السكـوت على مـا ينتظـر أهلــه من عسف . ويحـسم أمره فى مواجهة النـاظر وزوجته ، ويقرر أن ينتقل إلى صف أهله ، وينفـذ هذا بـالفعل ، ويقود معـركة أبنـاء «أدهم» ضد النـاظر والفتوات ، وينتصر عليهم فى النهاية بالقوة والحيلة وحسن التدبير .

وهكـذا انتقل الحكم إليـه فى النهـايـة فكان مثـالا للعـدل والقـوة والنظــام فى الحارة . ولكنــه اهتـم بــآل حمدان فحسـب ولم يهتم بـالآخريـن من أولاد الحارة من «أبناء أدهم» . ولهذا لم تكـن رسالتـه رسـالـة لكل الحارة ، أو رســالة إنسانيـة شاملـة . بل اقتصرت على آل حمدان . وهى إشارة رمـزية إلى حـدود الرســالة الموسـوية . على أنها

خطـوة أولى فى المسيرة الإنسانيـة التى ستتنامى وتتسـع فى الخطـوات التالية .

فـالحال لا يـدوم ، فما أن ينقضى عهـد «جبل» حتى يعـود الظلم والاستغـلال والامتهـــان إلى الحارة ، إلى أولاد الحارة جميعـا . فتبرز وتقوى سلطـة الناظـر المستبد المستغل متسلحـا بنبابيـت الفتوات . يتغير اسم الناظر وتتغير أسماء الفتوات ، ولكن النظام نفسه يعود إلى ما كـان عليه قبل «جبل» . وأولاد الحارة المساكين ، يحلمـون بما كان يحلم به «أدهم» . فقـد أصبحوا «أققية» متورمـة من الصفع ، وأدبارا ملتهبة من الـركل ، وعيونـا يرعـاها الـذباب ، ورؤوسـا يعشش فيها «القمل» . وكما ظهر «جبل» من بين أبناء «أدهم» يظهر «رفاعة» ، الذى يأخـذ فى التصـدى للظلم والاستغـلال والقمع السـائد . ولكنـه يسير مسيرة غير مسيرة «جبل» . وعندما يقال لـه : «إن جبل بالجبروت أقام العدل ، وأنــه أراد بالفعل استخلاص الحق بالحسنى ، ولكنـه اضطر إلى استخدام القوة دفـاعا عن نفسه» كان رد «رفاعـة» : «إن حارتنا فى حـاجة إلى الـرحمة» ويقـول «رفـاعة» : «إن الـذى يحول بيننـا وبين السعادة هو العفاريت الكامنة فى أعماقنا» ، ولهذا كان يرى أن رسـالته المناهضة للظلم السائد هى طب العفاريت الكامنة فى الأعماق .

وهكذا نتبين أنه إذا كان «جبل» قد استعـان بالقوة والتدبير أسـاسا لاستعادة الـوقف ، وكان رمـز ذلك فى الروايـة هو اكتشـاف الثعابين والقضاء عليهم ، سواء أكانت هـذه الثعابين ثعابين حقيقية ، أم ثعابين تتمثل فى النـاظـر وفتواتـه ، فإن «رفـاعـة» ركز اهتمامـه وطبـه على النفوس ، «لإصلاحها وتطهيرها من الحقـد والطمع والكراهية وسـائر الشرور التى تفتك بأهل الحارة» ، وكانت العفاريت الكامنة فى الأعماق هى رمزهـا فى الرواية ، لقد أراد «رفـاعة» أن يفتح أبواب السعـادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه . ولكن الأمر انتهى به إلى أن يصرعه الفتوات .

وينقسم أتبـاعه من بعـده حول رســالته : هل هى الاقتصــار على

عـلاج المرض علاجـا روحيا تطهيريـا واحتقار الجاه والقـوة ، أم هى التمسك بكل الحقوق فى الوقف وإعادة توزيعه بالعدل ؟

وتنتقل بنا المسـيرة إلى مرحلة رابعـة . لقد تغير الزمن ولكن لا شىء تغير فى الحارة . «فالفقـر مايـزال مستشريا ، والوجـوه ماتـزال ذابلة مهزولـة ، والثياب مرقعة ، والبيـت الكبير مايزال قابعـا وراء أسواره غارقـا فى الصمت والذكريـات» وإلى اليمين يقبع بيت الناظـر الجديد ، وإلى اليســار بيت الفتـوة الجديد أيضـا . لعل الجديـد فى الحارة هـو انقسـام الحارة إلى حى آل جبـل ، وحى آل رفـاعـة ، إلى جـانب حى الفقـراء وهـو حى الجرابيع . ومن هـذا الحى الأخير ، حى الجرابيع ، يخرج شـاب يتيم اسمه قاسم ، ينتسـب من بعيد إلى جده الجبلاوى . تبناه عمـه زكريـا بياع البطاطـا وساعده فى بيع البطـاطا عنـدما كبر ، ولكنه سرعان ما تحول إلى راعى أغنام ، يرعى أغنام آل جبل وأغنام آل رفاعة . وانبثقت فى نفس قاسـم رغبة فى أن يكون مثل «أدهم» و«جبل» و «رفاعـة» . وأخذت تنمو فى الحارة سمعتـه باعتبـاره أمينا وحكيما . وكان يـرى أن الحكمة أجل من الفتـوة ، ولكنه لم يكن يـرفض القوة ، على أن العبرة عنده كانت بالقوة التى تصنـع الخير .

وهكـذا راح يتصـدى للناظـر والفتوات شأنه فى ذلك شأن «جبل» و « رفاعة » . ويبعـث إليه الجبلاوى بخـادمه قنديل ـ أو هكذا تصور لـه ـ لينقل إليـه رسـالته التى يقـول لـه فيها : «أولاد الحارة جميعـا أحفـاده على السـواء . ليس هناك تفـرقـة بين حى وحى ، بين فقير أو غنى . وان الـوقف ميراثهم على قدم المسـاواة» ويقـول له فيهـا : «إن الفتونـة شر يجب أن يذهب ، وأن الحارة يجب أن تكـون امتدادا للبيت الكبير» أى أن يكـون البيت الكبير ووصـايـاه العشر هـو مرجعيتهـا فى مختلف ممارساتها .

ويبدأ قـاسم جهاده غير طـامع فى نصيب من الوقف ، وإنما يـريد الخير الذى أراده جـده الجبلاوى ، وحـددته وصـاياه العشر . على أن

قاسم يضيف إلى هذه الوصايا قوله : بأنه إذا انتصر فلن يحرم النساء من ريع الوقف سواء كانت سيدة أو خادمة . ولكن هل يستند فى تحقيق رسالته إلى القوة «كجبل» أم إلى الحب «كرفاعة»؟ ويجيب عند سؤاله : «القوة عند الضرورة والحب فى جميع الأحيان» . ويقول : سنرفع النبابيت كما رفعها «جبل» ، ولكن فى سبيل الرحمة التى نادى بها «رفاعة» ، ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم «أدهم» هذه هى مهمتنا لا الفتونة» .

وهكذا تكتمل الرسالات جميعا فى رسالة واحدة ، ويكون من الطبيعى أن يقول قاسم : «إذا نصرنى الله ، فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى» . وتحتدم المعركة وتنتصر رسالة قاسم .

وتمر السنون ، ولا يلبث النظام السابق أن يعود ، نظام النظارة المستبدة المستغلة ، والفتونة القامعة . وتنقسم الحارة إلى ثلاثة أقسام ، بين آل جبل وآل رفاعة وآل قاسم ! أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه فى الزمان الأسود ، «تنهكهم الفاقة ، وتتهددهم النبابيت ، وتنهال عليهم الصفعات . وتنتشر القذارة والذباب والقمل ، ويكثر المتسولون والمشعوذون وأصحاب العاهات» .

وتنتشر عبارة «مافى فايدة» و «أحسن ما نفعل سكرة أو تحشيشة» !

ويبرز فى هذا الإطار «عرفة» الساحر ، أى رجل العلم والتكنولوجيا ، أو رمز رجل العلم والتكنولوجيا ، ليتصدى لهذه النكسة التى عدت على الحارة عقب أيام قاسم» . ويتساءل : نحن فى حاجة إلى قوة تخلصنا من الفتوات ، قوة تفوق سلطة الناظر ونبابيت الفتوات . وبعلمه أو بسحره ينجح فى صنع زجاجات تتفجر عند إلقائها وتفتك بمن يتعرض لها ، وأخذ يستعد للمعركة الفاصلة . ولكنه أراد أولا أن يلتقى بالجبلاوى وأن يعرف شروط الوقف العشرة ، وأن يطلع على الكتاب الذى طرد بسببه «أدهم» .

واستطاع أن يتسلل إلى البيت الكبير سعيا للقاء الجبلاوى فى خلوته . ولكنه يضطر إلى قتل خادم عجوز من خدم الجبلاوى حتى لا ينكشف تسلله داخل البيت الكبير .

وعندما يخرج من البيت دون أن يتمكن من رؤية الجبلاوى يعرف أن الجبلاوى قد مات . إنه لم يقتله ، وإنما قتل خادمه العجوز على الرغم منه . هل مات الجبلاوى حزنا على مقتل خادمه العجوز ؟ هل ثورة «عرفة» على أن يتسلل إلى بيت الجبلاوى وإلى ما يقرب من خلوته ، كانت إيذانا بنهاية الجبلاوى ؟ هل اكتمال كل الرسالات برسالة قاسم ، بالإضافة إلى أن القدرة العلمية التى يمتلكها عرفة تؤذن بنهاية الجبلاوى كمرجعية قيمية ؟ فالجبلاوى ترك لعرفة وصية أبلغتها له خادمته يقول فيها «لعرفة» «مات وهو راض عنه» . على أن عرفة راح يحلم بأن يرد الحياة إلى الجبلاوى بعلمه وسحره . وينجح عرفة فى صنع عدد من الزجاجات القابلة للتفجير ، وينجح بفضلها فى التخلص من واحد من كبار الفتوات . ويكشف الناظر أن عرفة وراء ذلك ، وأنه يملك هذا السلاح الحاسم ، الذى لا تقف أمامه النبابيت . ويستدعيه الناظر ، ويبلغه أنه مثله يريد أن يتخلص من فتوات الحارة ، وأنه يريد أن يستعين بزجاجاته المتفجرة لتحقيق الهدف .

ولكن كيف يتحالف عرفة مع الناظر الذى كان هو نفسه هدفا من أهداف رسالته للقضاء على الظلم والاستبداد ؟! على أنه يضطر إلى ذلك التحالف ، فالناظر يعرف سره ، ويستطيع أن يفشيه ويترك «عرفة» لانتقام بقية الفتوات وأعوانهم .

وهكذا يتحالف العلم مع السلطة المستبدة ! معنى هذا أن السلطة المستبدة تستطيع أن تستخدم العلم لصالحها ، لتأكيد وحماية استبدادها ! فالناظر ما كان يريد التخلص من الفتوات بسبب ظلمهم

وعـدوانيتهم ، وإنما بهدف الاستئثـار بـريـع الـوقف الـذى كـانـوا يشاركون فيه .

ليس بـالعلم وحده إذن ينقشع الظلم وتسـود السعـادة وتتوافـر الحقوق لأصحابها ! ولهذا كان «عرفـة» يؤكد ضرورة إعادة الحياة إلى الجبلاوى ، أى ضرورة المرجعيـة القيمية إلى جـانب سحـره أو علمه . على أن جانبـا من هذا كـان متحققا فى حيـاة ومسلك «عرفـة» نفسه ، ويتمثل فى زواجه «بعـواطف» . «فعواطف» كـانت باسمها وبسلـوكها وجمالها رمزا للمحبة والإخلاص والعمق الـوجدانى الروحى والتفانى فى الخدمة والعمل .

كان زواجهما يعبر تعبيرا رمـزيا عن وحـدة العلم والشعـر ، وحدة التكنولوجيا والقيم الإنسـانية . على أن الناظر ينتصر عليهما ، وينجح فى استغلال علم وتكنـولوجيا «عرفة» فى التخلص مـن الفتوات ، إلا أنه فى الـوقت نفسـه نجح فى احتـواء «عـرفـة» و «عـواطف» ، بفـرض وجـودهما فى قصره ، وحرمـانهما من الخروج منه ، بحجـة حمايتهما من أولاد الحارة ، بل وفى إغـراقهما بـالمتع والـراحـة والحشيش حتى يتملكهما تمامـا . على أنـه فى هـذا المنـاخ من الاسترخـاء والاستمتـاع والتخـدير ، تكتشـف «عـواطف» أن «عرفـة» يخونها مع امرأة فى هـذا القصر . وقد تكـون هذه الخيـانة فى الروايـة مجرد رمز لخيـانة أكبر وأشمل هى خيـانة «عـرفة» لعواطـف «الرمـز» وخيانته للعلـم نفسه بتحالفـه مع الناظر رمـز الظلم والاستبداد والاستغـلال ، ولهذا تقرر «عواطف» الانفصـال عن «عرفـة» والهروب من قصر الناظـر ، وتعود إلى بيتها المتـواضع فى الحارة . ولكن عرفـة سرعان مـا يلحق بها ، بعد رفضها المتكرر له ، وتقبل معذرته وندمـه عندما يؤكد لها أنه لا عودة إلى الناظر ، وأنه يخطط للهرب معهـا خارج الحارة . ولكن الناظر كان لهما بالمرصاد . فيقبض رجاله عليهما ، ويدفنانهما حيين فى الخلاء .

على أن «عـرفة» كـان قد استطـاع أن يتخلص من كراسـه الحاوى

لأسرار سحـره وعلمـه ، ويسعى صديقـه «حنش» للعثـور على هـذه الكراسة ومـواصلة طريق عرفـة . وقيل فى الحارة : «ان بعض الشبان قد أخذوا يختفون من الحارة ، وانهم اهتـدوا إلى مكان حنش وانضموا إليه ، وانه يعلمهم السحر استعـدادا ليوم الخلاص الموعود» ولكن هل بـالسحـر أو بـالعلم وحـده فى أيـدى حفنـة من أولاد الحارة يتحقق الخلاص ؟! فى حوار بين «عرفة» و «عواطف» تقول له «عواطف» :

«فى زمن قصير حقق «قـاسم» العدالـة بغير سحرك!» فيرد عليهـا «عـرفـة» قائلا : «وسرعـان مـا ولت . أمـا السحر فأثـره لايـزول ، لا تستخفى بالسحر يا عسلية العين ، إنه لا يقل عن حبنا خطرا ، ويخلق مثلـه حياة جـديـدة ، ولكنه لا يـؤتى أثـره الحق ، إلا إذا كـان أكثرنـا سحرة!» .

معنى هذا أن القضية ليست قضية السحر فى ذاته ، وإنما أن يمتلك أكثرية النـاس هذا السحر ، أو هذا العلم . ولكن هـذا الانتشار للسحر أو للعلم لن يتأتى إلا «إذا تحققت العـدالة ، إذا نفـذت شروط الواقف ، إذا استغنى أكثرنا عن الكـد وتوفروا على السحر» هكذا يقـول «عرفة» «لعواطف» إن العلم إذن لا يسهم فحسب فى تحقيق العدالة ، بل يسهم كـذلك فى تكريسهـا وحمايتهـا من الانكماش ، ولكن اشترط أن يصبح العلم ملكا لأغلبية الناس .

وتعود الحارة فى النهايـة كما كانت من قبل يسودها جـو قاتم من الخوف والحقـد والإرهـاب ، ولكن النـاس كانـوا يتمسكـون بـالأمل «وكانـوا كلما أضرّ بهم العسف قالوا : لابـد للظلم من آخر ، ولليل من نهار ، ولنرين فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب» .

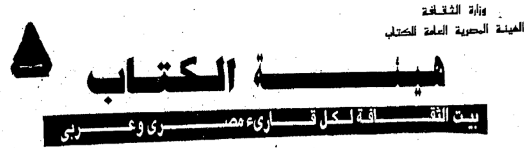
وهكـذا تنتهى أولاد حارتنـا بالأمل ، ومـواصلة طـريق البحث عن خـلاص . وتكـاد تتبلـور كلمتهـا الأخيرة فى هـذا اللقـاء الحميم بين «عرفة» المعبر عن المواصلة العملية والإضـافة العلمية لكل المجاهدات السـابقة من أجـل استعادة الحق وتـوفير العـدالة والمسـاواة والخير

للنـاس جميعـــا ، وبين «عـواطف» التى تعبر عن العمق الــوجـدانى والروحى لإنسانية الإنسان .

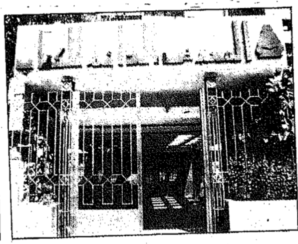
فهـل نسـتطـيع أن نتبـين فى هـــذا اللقـاء الحمـيم بين « عـرفة » و « عواطـف » ثورة أكثـر تطورا وتقدمـا وعمقا مـن هذا اللقـاء الذى يغلب عليـه طابع التـوازى والثنائيـة فى نهاية «الثـلاثية» بين «أحمد» الشيـوعى و «عبدالمنعم» الإخـوانى اللذين حملتهما عـربة واحـدة إلى معتقل الطـور ؟ !

إن «أولاد حارتنـا» ـ لو صح هذا ـــ هى امتداد للثلاثية فى مـرحلة جديدة من تاريخ مصر ، وبأسلـوب مختلف يتلاءم مع الأوضـاع التى كانت سائدة عنـد صدورها ، والتى كانت «أولاد حارتنا» ـــ كما ذكرنا من قبل ـــ تعبيرا نقـديـا لها . على أن روايـات نجيـب محفـوظ التى صدرت بعـد «أولاد حارتنا» تكـاد أن تكون امتدادا لها ، تتـوزع فيها أولاد حارتنا حاملين الـدلالة الإنسانية العميقة لروايـة «أولاد حارتنا» بمستوى أو بآخـر ، بأسلوب أو بآخر . ونستطيع أن نتبين هـذا بوجه خاص فى روايات «اللص والكلاب» و «الطريق» و«السمان والخريف» و «الشحاذ» و «حكايات حارتنا» و«الحرافيش» وغيرها .

ولهذا تكـاد رواية «أولاد حارتنـا» أن تعبر عن النسق العـام لأدب نجيب محفوظ فى مختلف تجلياتـه ودلالاته . إنها رد فعل فكرى نقدى أخلاقى روحى لثورة يوليـو ١٩٥٢ ، ولكنها تخرج عن حدودها الآنية اللحظيـة المحـــددة لتعبر عن هومنـا المصريـــة عـامـــة ، وتطلعنـا ومجاهداتنا لتجاوز هذه الهموم ، شأن جميع روايات نجيب محفوظ ، إلا أنها فى الوقت نفسه تفيض عن حدودنـا المصرية إلى حدود إنسانية شاملة دفاعا عن طريـق الكرامة والسعادة والخير والمساواة والحرية والتقدم للإنسان فى كل مكان .



ان إنتاج الكتاب يعتبر مهمة جليلة لها مراحلها التى سخرت لها هيئة الكتاب اكثر الأجهزة الثقافية امتيازا وقدرة على اختيار المفيد والجديد فى هذا المجال ولم يقتصر الأمر على اختيار الكتاب فقط بل امتد الأمر إلى طباعة الكتاب حيث لدى الهيئة احدث المطابع . والفنيين الذين يقومون على إخراج وطباعة الكتاب بشكل رائع لا يقل عن مستوى الكتاب فى البلاد المتقدمة من حيث الإخراج والطباعة وبالقطع لا يقتصر الامر على اختيار الكتاب وطباعته بل لابد من أن يصل الكتاب إلى القارىء فى مصر وفى خارج مصر ومن اجل ذلك وضعت الهيئة المصرية العامة للكتاب اكبر شبكة ثقافية لتوزيع الكتاب المصرى وذلك من خلال محاور توزيع متعددة .



أولا باعة الصحف :

وضعت الهيئة نظاما للتوزيع من خلال باعة الصحف فى جميع انحاء مصر وخاصة فى المشاريع الثقافية الضخمة مثل (مكتبة الأسرة) إلى جانب مجلات الهيئة مع توزيع الكتب ذات الأثمان الشعبية .

ثانيا فروع الهيئة ومكتباتها

لقد نشرت هيئة الكتاب فى جميع محافظات مصر مكتباتها المتخصصة فى البيع ونجد هذه المكتبات على النحو التالى :

● القاهرة :

مكتبة ٣٦ يوليو ت : ٥٧٨٨٤٣١
١٩ شارع ٢٦ يوليو

مكتبة عرابى ت : ٥٧٤٠٠٧٥ ٥ ميدان عرابى

مكتبة حديقة الفسطاط حديقة الفسطاط - صلاح سالم

مكتبة الحسين ت : ٥٩١٣٤٤٧ الباب الاخضر - الحسين

مكتبة الفسطاط مصر القديمة

المعرض الدائم ت : ٧٧٥٠٠٠ مبنى الهيئة - كورنيش النيل

مكتبة ١٥ مايو مدينة ١٥ مايو

● محافظة الاسكندرية :

فرع الاسكندرية ت : ٢٢٠٦٠١٨ ٤٩ شارع سعد زغلول

● محافظة الجيزة :

مكتبة الجيزة ت : ٧٢١٣١١ ١ ميدان الجيزة

مكتبة رادوبيس شارع الهرم مبنى سينما رادوبيس

مكتبة اكاديمية الفنون ت : ٨٥٠٢٩٦ - ٨٥٠٧٢٧ شارع الهرم مبنى اكاديمية الفنون

● محافظة المنيا :

مكتبة المنيا ت : ٤٤٥٤ ١٦ شارع بن خصيب

مكتبة جامعة المنيا مبنى كلية الآداب

● محافظة أسيوط :

مكتبة أسيوط ت : ٣٢٢٠٣٢ / ٠٨٨ ٦٠ شارع الجمهورية

● محافظة أسوان :

ت : ٢٩٣٠ السوق السياحى - أسوان

● محافظة بورسعيد :

مكتبة بور فؤاد بجوار مدخل الجامعة (عمارة الحزب الوطنى)

● محافظة الدقهلية :

مكتبة المنصورة ت : ٣٤٦٧١٩ ٥ شارع الثورة - المنصورة

● محافظة المنوفية :

مكتبة منوف ت : ٠٤٨٣٦١٣٢٤ مبنى كلية الهندسة - منوف

● محافظة الغربية :

مكتبة المحلة الكبرى ميدان المحطة - المحلة الكبرى

مكتبة طنطا ت : ٣٣٢٥٩٤ ميدان الساعة - عمارة سينما امير - طنطا

● محافظة البحيرة :

مكتبة دمنهور ت : ٣٢١٦٢٩ / ٠٤٥ شارع عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

وهناك مكتبات تحت التجديد بحيث تعود للعمل فى احسن شكل وفى اقرب وقت .

مكتبة شريف ت : ٣٩٣٩٦١٢ ٣٦ شارع شريف

مركز الكتاب الدولى ت : ٥٧٨٧٥٤٨ ٣٠ شارع ٢٦ يوليو

مكتبة الاسماعيلية ت : ٠٦٤/٣٢٤٠٧٨ منطقة الشيخ زايد الحى الثالث

ثالثا منافذ التوزيع والمعارض المحلية :

وهذه المراكز يتم إنشائها فى مناسبات ثقافية وتعتبر منافذ بيع هامة مع المعارض المحلية .

رابعا المعرض الدائم للكتاب :

وهو اضخم نافذة للعرض والبيع فى القاهرة حيث يوجد فى مبنى هيئة الكتاب فى مكان يستوعب سيارات المترددين من العملاء بشكل مريح . وحيث يتم عرض كتب الهيئة مع إصدارات ومنشورات ٤٧ دار نشر مصرية ويعطى خصم فى هذا المعرض بمقدار ٢٠٪ على إصدارات ومنشورات هيئة الكتاب أما بقية دور النشر الأخرى فيتم خصم ١٠٪ على إصداراتها ومنشوراتها .

أن هيئة الكتاب لتولى التوزيع اهمية خاصة حتى يصل الكتاب إلى القارىء المصرى فى مكانه .

● *أما بالنسبة لتوزيع الكتاب خارج مصر فتقوم المؤسسات المصرية المعنية بالتوزيع بهذا الأمر إلى جانب الوكلاء المنتشرين فى جميع ارجاء الوطن ... مع حضور معارض الكتب فى مختلف البلاد العربية .*

اصدارات هيئة الكتاب
ثقافة رفيعة بأسعار رمزية

رئيس مجلس الادارة
أ . د . سمير سرحان

رقم الإيداع ١٩٩٤ / ١١٢٣٣٣
I. S. B. N. 977 - 08 - 0227



الثمن ٣ جنيهات

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم